

تصدير

منذ سنوات اثرنا فى هذا التصدير قضية المصطلح القصصى ، وما يعانيه من كثرة التضارب فى العديد المتوفر منه فى اللغة العربية .

ودعونا الى ضم الجهود والتعاون فى سبيل التخفيف من حدة ذلك النقصان، أو حدة ذلك التخالف على الاقل . **والواقع أن القضية لا تهم الفن القصصى أو الادبى والثقافى فقط بل هى علة عامة متفشية فى كل مجالات الحياة المتطورة المتقدمة من أعلى أجواء الفضاء الى أبلغ عمق فى البحر .** وذلك شئ طبيعى يتبع سنة الحياة ترقيا وتدليا ، فالمصطلح اسم لابد له من مسمى والا فلا فائدة منه . واذا كان من السهل على صانع المسمى ايجاد الاسم لمسماه فانه من الصعب على المستهلك لذلك المصنوع أن يعثر له على الاسم المناسب . ومن هنا كثر جرى اللاهثين من الامم المتخلفة حتى تلحق بالركب المتقدم وتكون فى مستوى الفهم للخطاب على الاقل . وغالب ما يكون ذلك المستهلك لا يتقبل المصنوع المسمى فقط بل يستورده باسم صانعه ولغته .

وكنا ألمحنا الى العلة المزمنة فى تعثر المصطلح العربى ، وكثرة «الاجتهاد» والتكالب على السبق المصحوب بالارتجال والمدفوع بالانرجسية والخلفيات المتأصلة فى خلاف متواصل رغم «النداءات» و «الشعارات» التى نصيح ونلوح بها من أجل الامة الواحدة واللغة الواحدة .

واذا كان الاعلان فى هذا العدد عن ندوة حول مصطلح القص ستقام بالاشتراك والتعاون بين نادى القصة وجمعية المعجمة العربية بتونس ، فانه - فيما نحسب - يعتبر - على الاقل - مؤشرا لما ينبغى أن يعمل من اجل المصطلح العربى الحديث . فجمعك بين المعجمى والمبدع مفيد جدا فى التطارح والتحاور ، وفيه غرس لخلق كريم نحن فى أشد الحاجة اليه .

وعسى أن يكون فى هذه التجربة ما يحفز الهمم على مواصلتها واتساعها ، والنسج على منوالها .

واذا كان هذا العمل / النموذج اهتم به المعوز فى المال ، والفقر فى الامكانيات فان رأسماله هذا التسامى فى البذل والتعاون تحقيقا لهدف صعب المنال ، طويل النفس ، محتاج الى مجهود أكبر ومال أوفر .

فهل يحقق هذا النموذج الامل ، وهل يحرك السواكن تحريك الفعل وحركة المحصول؟؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قصص

سفر الموت والقيامة نص حكاى

حكاية طائر الفينيق .

دخل المدينة رجل غريب ...

كان يرتدى جبة الحلاج ... ويمتشق سيف عنتره ... ويضع على رأسه
خوذة الحسين ... ويمشى فى الاسواق كنبى فقير ... يجوب الازقة والرحاب ،
على ايقاع أرجوزة لابن الفارض ...

لم يكن أنيقا ...

ولم يكن رشيقا ...

ولم يكن من الوجهاء ...

لكن شيئا ما ، حدث بالمدينة ...



دخل المدينة رجل غريب ...

لم يحصبه أطفالنا بالحجارة ، كما يفعلون بالمجاذيب ... لم يتحرش به
سفهاؤنا ، كما يفعلون بالدراويش ... لم يسخر منه شيوخنا ، كما يفعلون
بالغرباء ... حتى كلابنا الشرسة ، لم تضرسه بأنيابها ...

دللت آذانها ، وأقعت ...

طرحت ذيولها وأقعت ...

تطلعت اليه بذعر وحذر ، وراحت تلهث ، وتلهث وتلهث ... هى أيضا ،
أدركت بغريزتها ، أن شيئا ما ، حدث بالمدينة ...



دخل المدينة رجل غريب ...

كان يحمل «سفر القيامة» بيد ... ويحمل عصا سحرية ، أثرية بيد ...
شدت اليه أعين ، وخفقت قلوب ... انفتحت أبواب وشرعت نوافذ ... تراكضت
أقدام ، وتدافعت مناكب .. وتهامس الناس فى المدينة :

– سبحانك اللهم ... أى شر رفعت ، وأى خير وضعت ...
ولعل صوت المنادى :

– هنيئا لكم أهل المدينة... حفيد الاكرمين عاد... جاب الامصار وعبر البحار،
وقطع القفار وجاء ... فاذبحوا العجول ، ودقوا الطبول ، واهتفوا معا : «اليوم
ينتهى سفر الموت ، ويبدأ سفر القيامة»...

وأدرك الناس ، أن شيئا ما ، حدث بالمدينة ...



ARCHIVE

دخل المدينة رجل غريب ...
بأكاليل الغار توجناه ... بأثمن المطارف دثرناه ... بأزكى روائح الطيب
عطرناه ... على هامتنا الشامخة حملناه ... الى أعلى عليين رفعناه ...

وتحرك الموكب ... من بوابة المدينة الى قاع المدينة، تحرك الموكب ... مخترقا
الازقة الضيقة المتعرجة المتربة ... مخلقا على الرمال آثار أقدامنا العارية
الغليظة الخشنة ... متجها صوب الباحة العتيقة الواسعة ، حيث ينتصب هيكل
الزاوية بقبابها المهترئة المفلطحة البيضاء فى شموخ وحيث يتربع ضريح الشيخ
المبارك ، صاحب الكرامات والطريقة ، يفوح من أرجائه عبق التاريخ ممزوجا
بروائح الند والعنبر ، فيتسلل الى الاطراف خدر ناعم ، وينتشى القلب بصفاء
مسكر ، وكأن الشيخ يخاطب بروحه الوجدان بلسان الوجد ...

والموكب يتقدم بخطو وثيد موقع ... والهتاف يعلو ... وصياح الصبية
يعلو ... وزغرودة النسوة تعلو ... والحاضر يخطر الغائب .. ويتجمع أهل
المدينة بباحة المدينة فى قاع المدينة ليشهدوا عرس المدينة ... حتى العجز من
الشيوخ تعاملوا على أنفسهم ، وأسرعوا الخطى ليشهدوا بأعينهم الحدث قبل

أن يتحول الى أحدوثة ... والحدث المنتظر هو أن يسحق صاحب الطريقة نقيب
الزاوية وأعوانه بضربة واحدة من عصاه السحرية ، كما فعل حد الاكرمين ،
صاحب الكرامات والطريقة فى الزمن القديم ...

الشيوخ أيضا ، أدركوا بحكمتهم ، أن شيئا ما ، حدث بالمدينة ...



دخل المدينة رجل غريب ...

تحلق الاطفال حوله فى دوائر ... تماسكت أيديهم وراحوا يرقصون
وينشدون هازجين :

عاد الينا شيخنا الخضر .

عاد الينا .

كالصفاء غب المطر .

خضر .

خضر .

خضر .

عرشت الكروم فى غاباتنا .

وأورق الشجر .

حومت الطيور فى سمائنا .

وهمس القمر :

خضر .

خضر .

خضر .

كطائر الفينق عاد .

نفض الغبار عنه والرماد .

فانجاب عن قلوبنا الكدر .



وانزاح عنا هاجس الخطر .

خضر .

خضر .

خضر .

الاطفال أيضا ، أدركوا بفطرتهم أن شيئا ما ، حدث بالمدينة ..



دخل المدينة رجل غريب ...

وجد في انتظاره أصحاب الطريقة وشيخ المنشدين وحضرة النقيب ...
سجدوا أمامه ... قبلوا أقدامه ... بللوا بدموعهم تراب الارض تبركا ...
وذبحوا العجول والخرفان تقربا ... أحرقوا البخور ، وأهرقوا العطور ،
وانتظمت حلبة الذكر ، وبدأ الرقص والانشاد على وقع البنادير والمزامير ...

الرقصة القديمة اياها ...

الحركة الموقعة اياها ...

الذكر المعتاد اياه ...

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وقال شيخ المنشدين بصوت اكتسحت نبراته هممة المريدين :

«هنيئا لكم أهل المدينة بعودة صلاح الدين ... مظفرا من معركة حطين عاد ...
اليوم ينتهى سفر الموت ، ويبدأ سفر القيامة ... وراح يردد تراث أبي العزائم ،
والمريدون من خلفه يرددون : «الله حي ... الله حي» :

لا تلمنا اذا صغونا فاننا عند ذكراه قد خلعنا العذارا
ليس يدري أحوالنا غير فرد نال منا القبول والاختيارا
سرنا غامض دعونى أغنى فلدى الانس حالتى لاتجارى
لا تميل الاشباح الا بسر فتراها تغيرت أطوارا

والحلقة تتسع أكثر فأكثر ... والهتاف يعلو أكثر فأكثر ... والحماس
يتضاعف أكثر فأكثر ... والنشوة تشتد مع اشتداد الرقص والمديح والبخور...

وتسرى عدواها فى صفوف المتفرجين فتتضم الى حلبة الذكر جموع من المنشدين
والذاكرين ... وحشود من المسبحين والهاتفين ... فتزداد الحلبة اتساعا ،
وتتماسك آلاف الايدى فى رقصة هستيرية متشنجة حبلى بالنشوة والحماس ...

وأدرك الشيوخ بحكمتهم ، أن شيئا ما ، حدث بالمدينة ...

كان يرتدى جبة العلاج ... ويمتشق سيف عنقرة ... ويضع على رأسه خوذة
الحسين ... ويمشى فى الاسواق كنبى فقير ... يجوب الازقة والرحاب ، على
ايقاع أرجوزة لابن الفارض .

لم يكن أنيقا ...

ولم يكن رشيقا ...

ولم يكن من الوجهاء ...

وقف أمام الجموع الحاشدة من حوله ... وراحت عيناه تتفحصان الوجوه ...
ثم تحركت شفتاه ، وقال بصوت اكتسحت نبراته هيبة الصمت :

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

« كلم شفا دنم غبن سباد كل دشمن قرفت سع كنه شلو هدف لسف بلم
قعس سرح شب فلم دهى قتا » ...

ودخل الزاوية ... أوصد الباب خلفه بإحكام ، بينما راحت الاجساد تتلوى
فى رقصة ايقاعية متشنجة ... وكان شاعر المدينة فى صفوف المتفرجين يتابع
المشهد بسخريته المعهودة ...

وحين استيقظ الناس فى الصباح ... لم يعثروا على الشاعر لكنهم عثروا على
لوح مشدود الى باب الزاوية كتب عليه :

أقول لكم : معجزة زماننا ، أن لا معجزة لنا فى زماننا ...

زمن المعجزات انتهى ...

أقول لكم : طائر الفينق لم يكن حقيقة ... طائر الفينق كان اسطورة ...

أقول لكم : سفر القيامة ، لم يكن سفرا للقيامة ... سفر القيامة كان
أكلوبة ...

وأدرك الناس ، أن الشاعر ، لم يكن وحده الذى أدرك أن شيئا لم يحدث
بالمدينة ...



كوجيتو التفكير والجريمة :

أصدرت لجنة الرقابة ما يلى : «يصادر النص المكتوب على اللوح ، بمقتضى
الفصل 45I فهرنهايت من قانون العقوبات الفنية ... ويحال الشاعر على
محكمة الزاوية بتهمة التثامر على أمن المدينة ، والانتماء الى جمعية غير معترف
بها ، والتحريض على العصيان المدنى ، و... و... والتفكير ...» ...

اعلان فى صحيفة الاعلان :

تعلن جمعية الفن الرابع للرقص والتمثيل ، أن الممثل الشهير صالح سعيد
قد اختفى فى ظروف غامضة ، أثناء قيامه بدور الناصر صلاح الدين قرب مدينة
الزاوية ، علما أن الجمعية قد رصدت جائزة هامة لمن يعثر عليه ، أو يدل على
مكان اقامته ، مع الاشارة أنه أصيب بنوبة عقلية وهو فى قمة عطائه ...



ابراهيم الاسود

قبلي فى 10 - 10 - 1989

سالم المقتول

شعرت بخزى كبير بعد انتهائى من البكاء . فما معنى مجابهتى لكل ما حدث بهذا البكاء ؟ لو أن كل مشكلة اعترضتنا جابهناها بالبكاء لانتهت «أنف العفة» منذ زمن بعيد .

انتصبت واقفا وكلى عزم على تنفيذ ما قررت ، يجب أن لا أبقى متفرجا باكيا أمام ما يجرى فى بلدتنا «أنف العفة» ، فلماذا يرفضون دفن جثة «مبروك الحفيان» ؟ الآن فهمت سبب قول «صالح المقتول» : الموت مع الفضيحة . نظرت الى البحر فرأيت القارب ما زال يبتعد . عندها انطلقت مسرعا نحو دكانى الذى لم يكن يبتعد كثيرا عن البحر وأقيمت منه «بقارورة كبيرة» من الغاز . ثم جمعت بعض أغصان شجر الزيتون ، ونثرتها على المراكب الراسية فى الميناء . ثم سقيتها النفط وأشعلت النار بعد أن وضعت فى كل قارب قارورة غاز . لا بد أن يعرفوا جميعا أنه لا مجال لهم بعد اليوم للعيش فى «أنف العفة» . انهم لا يستحقون العيش فيها . لقد ذهبت كبرياؤهم وديست كرامتهم ، لذلك لا بد عليهم من دفع الجزية .

«أنف العفة» للاقوى . أنف العفة للاقوى ...

هكذا كنت أصبح بعد أن التهمت النيران فى جميع المراكب .

حين هرع جميع من كان فى البلدة لمشاهدة ما يحدث واكتظ جمع كبير من أبناء بلدتنا على الشاطئ ، اندسست فيهم . حاولوا فى البداية اطفاء النيران لكنهم عجزوا عن ذلك ، فبقوا يشاهدونها وكل واحد منهم يتحدث بطريقته : «.. لقد فعلها «ناجى العسل» ثم هرب ..» لم أعلق على ما سمعت واكتفيت بالانصات . فقد أبناء بلدتنا «أنف العفة» حتى ثقتهم فى بعضهم البعض لذلك يكيلون التهم «لناجى العسل» . لقد نسوا أنه الوحيد الذى لا يمكن أن يفكر فى ذلك ، فقد ترك لهم البلدة بعد أن تأكد من فقدان «أنف العفة» لهم .

شعرت بالتعب يعتريني ، حين أشرقت الشمس . فقد أمضيت كامل الليل في العمل لذلك تركت حشد الناظرين الى النيران ، واتجهت نحو البلدة مع بعض من أدركه وقت شغله . كنت أشعر بضيق كبير وحاجة ملحة الى الراحة علني أستطيع بعد ذلك التفكير أحسن في صحة ما فعلت . فكلهم في النهاية أبناء «أنف العفة» وليس لي حق الوصاية عليهم . لكن الذي حدث قد فات ولست نادما عليه .

حين وصلت الساحة الشرقية للبلدة والتي تخول للواحد الاشراف على كل ما يجري في شاطئ البحر نظرت خلفي فرأيت لهيب النيران يعلو الارحاء ، وقد كان يسمع بين الفينة والاخرى دوى انفجار . الفرحة التي اجتاجتني وأنا أنظر الى ما فعلته لا تسع صدري . لقد ذهب عني كل التعب .

لما خمد لهيب النيران تصاعد في الفضاء دخان كثيف . لم يلتف في كومة واحدة بادى الامر ، بل كان جميعه يسير في اتجاهي . ربما كان يريد أن يقول : «هذه ثمرة فعلتك فخدها» . لو كان الدخان يتكلم لقال اكثر من ذلك . فحتى الدخان في «أنف العفة» له كبرياء . كان يتجه نحوي بخيلاء كبيرة .

رفعت وجهي الى السماء أكثر بعد أن لقني الدخان . كنت أريد أن أشاهد حركة هذا الدخان . فعادة ما يشاهد الواحد عدة رسوم في الدخان الكثيف ربما لا يكون لها من وجود الا في مخيلة المشاهد . لكنني الآن أرى ما هو أعظم .

ظننت أن ما أراه هو من صنع خيالي فنظرت الى شاطئ البحر . كان كل الجماعة ينظرون الي . ثم سمعته يصيحون : «عاد الدخان الى صاحب الفعلة . سحقا لك ... لقد ظلمنا «ناجى العسل» .. الدمار للاشرار .. الدمار للاشرار ..» ثم انطلقوا نحوي يجرون . لم أنتظر قدومهم ولا أعرت اهتماما لما يقولون بل علمت الى التفرس في ما رأيت . كل ما حولي يشعرني بالعظمة . فهذه جمال بيضاء وسط الدخان الكثيف تريد حملي الى الجنة . سأرحل عن «أنف العفة» .. سأرحل ، لكن ليس الى وجهة أخرى بل الى أعلى .

أناخت احدى النوق وكأنها سمعت ما يجول في خاطري فركبت . لم أكن أنوى الهرب بل الصعود الى أعلى . الصعود الى الجنة التي حكى عنها شعبان

الشحاذ فربما تعيد لي تلك الجنة ما فقدته من كبرياء . لكن وصول الجماعة الي واقتران ذلك بزمان صعودي أذهب عني ذلك الاحساس .

سمعتهم يقولون عندما رأوني أصعد : لقد هرب !. هرب !. وهل يستحق من يهرب أن يكون من أبناء «أنف العفة» ؟ الدمار للاشرار .. الدمار للاشرار ... شعرت بخزي كبير فحاولت الرجوع . ذهبت عني كل تلك الفرحة بالصعود . لقد ذهب كل ما فعلته هباء . سيقولون : ان كل ما فعلته لم تكن له من غاية الا صعودي أنا . لذلك يجب علي أن أعود ...

مسكت الجمل الذي كنت أركبه فأبى الوقوف . عندها ارتيمت على عنقه بكل ثقلي فطرحته أرضا لكن عوض أن أهزمه وأعود الي «أنف العفة» ارتمت علي كل الجمال تدوسني . قاومت في البداية دون أن يهرع أحد لنجدتي فصحت : مرغم في هذه الدنيا على البكاء .. مرغم في هذه الدنيا على البكاء ... مرغم ...

نظرت حولي فلم أر غير الجمود . أشعة الشمس بدأت تتسلل من خلف الثقوب . لكن ليست هناك جمال . مسكت رأسي ثم عانقت جسدي عله يذهب عني بعض ارتجافي . استلقيت ثانية فوق الفراش حتي أشعر ببعض الراحة فوجدتني أعيد في مخيلتي كل ما رأيته في الحلم . لقد كانت نهايته مزعجة جدا لكن ما هو تفسير ذلك يا ترى ؟ فمنذ سفر «ناجي العسل» وشعبان الشحاذ بجثة «مبروك الحفيان» يعاد لي نفس الحلم في كل ليلة .

فما معنى ذلك ؟.

بعد أن أبى النوم العودة الي أجفاني نهضت من فراشي . وبعد أن تناولت فطوري اتجهت نحو المقهى . ليس لي من عمل أقوم به بعد كل ما حدث في بلدتنا «أنف العفة» الا ارتياد المقهى . فالناس لم تعد تشتري اللحم نظرا لما يجري في بلدتنا .

فمن عادة أبناء بلدتنا اشتراء اللحم في المواسم والاعياد فقط . أما في هذه الايام التي تكثر فيها أيام المواسم لانها تسبق شهر رمضان فقد نسي الناس كل الامور وكثر ارتيادهم للمقهى .

حين وصلت المقهى استقبلنى «النادل حسين» بوجه باسم وقهوة دون أن أطلبها . وانصرف الى غيرى . والنادل حسين صديق حميم الي رغم أنه ليس من أبناء «أنف العفة» لكنه وفي وطيب زد على ذلك التقاؤنا فى بعض المواقف .

تذكرت أننا يوم أمس تخاصمنا مع بعض أصفياء وخدم «صالح المقتول» بسبب ما حدث «لمبروك الحفيان» فقد رأوا انه نال جزاء شنيعة برفض دفن جثته فى «أنف العفة» بينما رأينا نحن أن اعتزازنا بكبريائنا لم يعد له أى مبرر وذلك بسبب ظلم «صالح المقتول» الذى نال جزاءه بما ألم به . واعتبرنا نحن كلامهم مDAHنة للتقرب أكثر الى ولي نعمتهم . واعتبروا هم كلامنا شماتة بالمرضى . وهذا يتنافى مع أخلاق أبناء «أنف العفة» وكادت تكون النتيجة وخيمة لولا تدخل أحد الشيوخ . وتهدئته للخاطر .

طالت جلستى فى المقهى فشعرت بالقلق . فكرت كثيرا فى ما يمكننى أن أفعله حتى أشغل وقتى فما اهتديت الى حل . لكننى حملت نفسى وخرجت الى الشارع . أشعر بضيق كبير من جراء هذا الملل . وتذكرت أنه بإمكانى ملء بعض الوقت من فراغى بتنظيف دكانى الذى كان يقرب كثيرا من منزل «صالح المقتول» .

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بعد أن فتحت الدكان جاء أكثر من واحد وعبر عن تدمره من الكلاب التى كان يزداد عددها فى كل يوم بسبب ما كنت أقدمه لها من لحوم نتنة . وهدأت من روع جميع من تدمر ببعض الوعود الكاذبة لاننى لا أستطيع أن أفعل لها ما يطلبون .

بعد أن رميت فى الشارع ما نتن من اللحم وأغلقت الباب هممت بالانصراف فحد سمعى صوت صياح . ان مصدره قريب جدا . ما الجديد الذى حدث ؟

الحقيقة أننى لم أستغرب من سماع الصياح لان كل الامور أصبحت جائزة الحدوث فى بلدتنا «أنف العفة» . تسمرت مكانى لاتبين مصدر الصوت بينما كانت الكلاب المتجمعة تنبح . كان الصياح قد انطلق من دار «صالح المقتول» لذلك اتجهت نحوها فرأيت زوجته تولول : لقد مات .. مات ولحق بأخيه .. مات «صالح المقتول» فلتسمع بذلك «أنف العفة» .

ذكرتنى ولولتها بموت «مبروك الحفيان» . لقد دخل البكاء والولولة عادات حدادنا . وهذه زوجة «صالح المقتول» تكون لها الاسبقية فى ذلك .

خرجت الى الشارع بعد أن اكتظ حشد كبير فى المنزل فوجدت الكلاب تنبح ربما كان ذلك هو ما أعطى الصباح حدة أكثر . فهرع الجميع الى منزل صالح المقتول بينما لم تنقطع الكلاب عن النباح . لو علم المتذمرون بمزاياها لفضلوا بقاءها .

لما وصلت الى المقهى أعلمت «حسين النادل» بما حدث فقال لى :

– لكن أظن أن جثة «صالح المقتول» لن تعود الى الارض بل الى من ظلمهم .
– استغفر ربك يا رجل .

– لقد قلت كلامى وانتهى الامر .

– هل ترفض دفن جثته فى مقبرة «أنف العفة» أيضا ؟

– اذا كان هناك من لا يستحق أن يدفن فى مقبرة «أنف العفة» فهو «صالح المقتول» .
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

– أنا معك ، بل وأكثر من ذلك يجب أن لا نترك من ينوب «ناجى العسل» .
فلا حق فى النعى لمن لا يستحق أن يدفن فى «أنف العفة» .

– الدنيا تدور . والدائرة اليوم على من ظلم .

بقيت جالسا فى المقهى وأنا أفكر فى كيفية اقناع أبناء بلدتنا بما قررته مع حسين النادل . لست أدري كم بقيت لكننى انتبهت الى صوت البراح . لم أكن أتوقع أبدا مثل هذا . فمن ناب «ناجى العسل» ؟

لم أخرج الى الشارع وحدى لان جميع من كانوا فى المقهى خرجوا حتى حسين النادل . كان الجميع يريدون معرفة من ناب «ناجى العسل» الا أنا وحسين النادل فقد كنا نريد تأديبه لانه أفسد علينا ما قررنا . زد على ذلك أن صوته كان ذا شبه كبير بصوت «ناجى العسل» .

تسمر الجميع مكانهم حين شاهدوا البراح . بما فى ذلك أنا و«حسين النادل» فما نراه هو حقيقة ولا يمكن أبدا أن يكون حلما . فهذا «ناجى العسل» ينعى بنفسه موت «صالح المقتول» فمن منا له جرأة صده عن فعل ذلك ؟ .

حين قررنا لم نقرأ حسابا لهذا أبدا . فلا أحد منا فكر فى عودة «ناجى العسل» أو انتظرها بعد حملة لجهة «مبروك الحفيان» . ظن الجميع أنه ترك البلدة دون رجعة . لكن عودته اليوم كذبت كل ما فكرنا فيه . فكيف سمع بموت «صالح المقتول» أم ترى كان ذلك مجرد صدفة ؟

أعلم جيدا أن «ناجى العسل» من الذين تهفو قلوبهم للمحبوب فلا بد أن يكون قد شعر بانقباض مفاجئ فعاد مسرعا الى «أنف العفة» يستطلع الامر . أعلم جيدا أن «ناجى العسل» يعشق «أنف العفة» حد الذوبان . لذلك لابد أن يكون قد ترك «شعبان الشحاذ» فى قريته ثم عاد إلينا مسرعا بل الى «أنف العفة» مستطلعا فاستقبله نبأ موت «صالح المقتول» .

الآن عرفت أين دفن «مبروك الحفيان» ، لقد دفنت جثته فى بلدة الشحاذين ، البلدة التى قدم إلينا منها «شعبان الشحاذ» . وربما قدم منها أيضا جميع الشحاذين الذين نعترضهم فى طريقنا .

أما «شعبان الشحاذ» فلا بد أنه لم يشأ العودة مع «ناجى العسل» ، فبعد الذى حدث فى «أنف العفة» لا بد أنه رفض الخروج ثانية من مسقط رأسه بلدة الشحاذين فلماذا يكون قد رفض «شعبان الشحاذ» العودة إلينا وعاد «ناجى العسل» الى أنف العفة ؟ .

لا بد أن يكون وراء عودته سر خفي . فما معنى أن يغيب «ناجى العسل» ثم يظهر هكذا ؟ وفى الوقت الذى كان من المفروض أن ينوبه فيه أحدنا فى عمله . لقد غاب جسدا وأبى الا أن يكون حاضرا ومساهما عند اقتضاء الفعل ، ليت الجميع يفهم منطق التفكير عند «ناجى العسل» . وليت «الطرطور» حضر بيننا حتى نسمعنا أهازيجه . فلماذا لم يظهر ؟ أين غاب ؟ .

ليس من عادته أبدا الغياب فى مثل هذه الحالات ، لا بد أنه لم يسمع بما حدث فى بلدتنا «أنف العفة» . عجبى من هذا النوع من البشر . انهم لا يستقرون

على حال أبدا . يعيشون معنا بكل حواسهم حتى نخال أنهم ذاتها ثم وحين
بقيبون ننسى حتى دورهم فينا ، انهم يحكونا . فكيف ننساهم ؟

كثرت الاسئلة في مخيلة كل واحد منا لكن «ناجى العسل» أتم دورته في
البلدة وهو ينعى «صالح المقتول» وكأنه ليس هناك ما يدعو الى الاستغراب أبدا .
انه يمشى وكأنه لم يفارق «أنف العفة» بسبب رفض الجماعة دفن جثة «مبروك
الحفيان» . انه متزن الى درجة يحسد عليها .

بعد أن أتم دورته اتجه نحو المقهى وجلس قرب الطاولة التى كنت جالسا
حنوها فجلست حذوه قبل أن يسبقنى الى ذلك أحد . عندها حاول بعض
الموجودين استفساره عما حدث له فأجابهم بطريقة أشعرتهم أنه لا يرغب فى
الحديث معهم فانفضوا لذلك من حولنا رويدا رويدا حتى بقينا وحدنا . عندها
قدم لنا «حسين النادل» كوبين من الشاي ثم قال :

– لن نسألك عما فعلت بل سنعلمك برفضنا لدفن جثة «صالح المقتول» فى
مقبرة بلدتنا ، فاجأه ما سمع فقال : لكن لماذا ؟

فأجابه «حسين النادل» بهمس : لانه الذى كان يحرض الناس على رفضهم
لدفن جثة «مبروك الحفيان» .

– لكن ما هو سبب رفضه ؟

– لقد سمعته يقول لبعض من خدمه وأصفيائه هنا فى المقهى «ان موته فى
منزلى بسبب جوعه يعنى أننى المتسبب الاول فى قتله ، لان الجوع هو الذى
جعله يصاب بالتخمة اما اذا رفضنا دفن جثته فذلك يعنى أنه سارق» . ونحن
لا نقبل السارق .

عندها قال ناجى العسل : ألم أقل لكم من قبل يا أبناء «أنف العفة» ان
الآلات القادمة الينا من عند «الثورة» هى سبب ما نحن فيه . فهل هذا هو ما
يفعله الاخ مع أخيه فى «أنف العفة» ؟ كفاكم كبرياء زائفة أيها المداهنون ...

ثم صعد فوق المنضدة وشرع ينعى ميتا . انتظرنا جميعا اسم الميت لان
الطريقة لم تكن عادية .

«لو كان طعم أمى من تربتى .. لو كان طعم فمى من يدى .. لما سبقت جثة بلدتى .. من القلب الى أمواج القلب» .

اشمأزنا جميعا من نعى «ناجى العسل» لانف العفة فمهما يكن لا يجب أن يصل بنا أبدا الى هذه الدرجة من الانكسار فبالذى نؤمن سنحاول التغيير بقاء «أنف العفة» رهن عزيمتنا . سنسعى الى تغيير ما فسد . «فأنف العفة» أمانة فى رقبتنا من يوم جذع جدتنا لانفها .

انصرف الجماعة من المقهى رويدا رويدا . فعاد «ناجى العسل» الى كرسیه كنت مشفقا عليه كثيرا لاحساسى بما كان يختلج داخله . فانا أكثر الناس التحاما به . لانه كان كثيرا ما يجلس فى دكانى . وأيضا لاننى كنت أشتري الخرفان من عنده لاذبحها ، ولذلك السبب توطدت العلاقة بيننا . بات جميع من كان فى «أنف العفة» ليلتها وهم منقبضو البال . فنعى «ناجى العسل» لانف العفة فال سىء ، لذلك كانت النفوس منقبضة .

ورأيت فى منامى نفس الحلم الذى كنت أراه طوال الايام الفاتئة .

استيقظت فى الصباح : كعادتى واتجهت نحو المقهى أين شربت قهوتى . ثم انطلقت نحو دكانى . وأمامه التقيت «بناجى العسل» . سألتنى عن هذه الكلاب الكثيرة فأعلمته بالسبب .

ثم قلت : ما هو سبب جلوسك هنا ؟

– انهم يغسلون «صالح المقتول» .

– سأربط هنا ولن أترك أى أحد يحمله الى المقبرة فأجلس معى .

قبل صلاة العصر بقليل قدم بعض الشيوخ الى منزل «صالح المقتول» لتشيعه الى مثواه الاخير . لكنهم وجدونى صحبة حسين النادل نرفض ذلك . وسرعان ما انضم الينا عدد كبير من الحاضرين . وكثرت جلبتنا وقوى صياح النسوة فاشتد نباح الكلاب .

وبقى الامر كذلك مدة ليست قصيرة لكن كانت لنا الغلبة فى النهاية .

«فصالح المقتول» هو الذى جعلنا نقدم الهدايا الى «الثورة» مقابل حصوله وحده على الآلات الجديدة لذلك سيقتل هذا العار هنا فوق أرض بلدتنا «أنف العفة» .

حاول بعض الشيوخ تهدئة الحاضرين لكن اصرارنا كان أقوى من أن نتراجع فى ما قررنا لايماننا بأن كبريائنا تكمن أساسا فى اصرارنا على ما قررنا .

صار ما يجرى فى بلدتنا هذه الايام محط انظار كل البلدان المجاورة لنا . وغادر منزل صالح المقتول كل من كان فيه الا زوجته التى قالت : هذا منزله وسيدفن فيه . وكل من يقترب منى سأقتله بهذه السكين . ثم وضعت كرسيها وجلست أمام باب المنزل .

كان من السهل جدا مداهمتها والدخول الى المنزل خصوصا أنها واحدة ونحن كثرة . لكن - ولأنها من أبناء «أنف العفة» وما يهمنا هو عدم دفن جثة «صالح المقتول» وليس الدخول الى منزله - فاننا لم نحاول مداهمتها . وأيضا تقديرا منا لوفائها لزوجها . وهذه صفة تمتاز بها نساء «أنف العفة» .

فأنا لا أذكر أبدا أن هناك من لاحظ عكس ذلك فى بلدتنا . بعد أن أعلمتنا زوجة «صالح المقتول» بقوارها بقي كل منا ينتظر . الاكيد أنه لم تكن فى مخيلة أى أحد منا طريقة عمل للخروج مما نحن فيه . لكننا بقينا ننتظر .

ربما كانت هواية الكسل والخمول التى أصبحت ترافقنا هى ما أذهبت عنا الشعور بالملل من الانتظار . فقد بقينا جميعا ننتظر دون ملل . وجميعنا جاهل بما سيفعله الزمن فى موقف كل واحد منا .

كنت متأكدا حين انتهى الى سمعى صوت نباح الكلاب . لم يكن نباحهم عاديا أبدا لذلك جريت مذعورا فرأيتها تداهم منزل صالح المقتول . صدتهم الزوجة بادى الامر لكنها كانت كثيرة . الكلاب ملت الانتظار فتحركت بينما بقينا جامدين .

دخلت المنزل فاذا هى تنهش جثة صالح المقتول . لم أكن أتوقع أبدا هجومها على المنزل . لكن الكلاب ملت الانتظار وأرادت حسم الموقف بينما نحن ننتظر . لذلك أصابنى ذعر كبير واشمئزاز أكبر مما كنت أشاهد .

ضربت بعض الكلاب لكن بعضها الآخر نهشنى فصحت وتراجعت وأنا أرتجف . لقد صعقنى ما يجرى أمامى فاصطكت أسنانى .

بقينا جامدين ننظر اليها تارة والى زوجة «صالح المقتول» تارة أخرى . فقد كانت الزوجة تندب وتولول : «لقد أكلت لحمه الكلاب . ابن بلدتكم «أنف العفة» أكلت لحمه الكلاب ...»

شعرت بقشعريرة تزداد حدتها وأنا أستمع الى ولولة الزوجة . فقد كانت تشعرنا بأننا أخطأنا صنيعا حين رفضنا دفن جثة «صالح المقتول» . كلامها الآن لا يمكن أن يفهم منه غير ذلك . فرغم كبريائنا واعتزازنا بذلك ، نحن عاطفيون جدا مع من يموت له عزيز . خصوصا اذا لم يكن الموت طبيعيا . لكن الا يكون ما فعلناه هو عين الصواب ؟ فلماذا تدفن جثة «مبروك الحفيان» فى «بلدة الشحاذين» ثم يريدوننا أن ندفن جثة «صالح المقتول» فى «أنف العفة» ؟ ها هى الكلاب تأخذ حقها ونحن ننظر اليها . كل هذا من جراء ما كنت أرميه من لحم نتن أمام دكانى . وربما كان ذلك هو سبب رئيسى فى القشعريرة التى اجتاحت جسدى وجعلتنى أرتعش .

بعد أن هربت الكلاب سمعنا زوجة «صالح المقتول» تقول : انتهت أنف العفة واستوت كل البلاد . فهذه الكلاب قد نهشت لحم ابن أنف العفة وأنتم تنظرون . استوت كل البلاد .. استوت .. الحق . أعمى قلوبكم ... الحق ..

احسست بيد توضع على كتفى وتضمنى اليها بحميمية فنظرت . انه صديقى «حسين النادل» الذى ضغط على أكثر ، فشعرت ببعض الدفء ، عندها قال :

– أراك ترتعش فما الذى حدث لك ؟

– ... أجبتة باصطكاك أسنانى وبعض كلمات لم أفهمها حتى أنا ، لكننى انتبهت الى أثر بعض الضربات على وجهه فصمت .

– المهم اكثر من تنفيذ ما تقرر هو التوازن والثبات عند حدوث الطوارئ .. احسست بوقع لكمة على كتفى فرددت بمثلها لمن كان ورائى دون تثبت واشتد العراك .

اننى اشعر بقشعريرة أشد لكننى ملزم على الدفاع عن نفسى . وقد كان
العراك أساسا مع بعض خدم وأصفياء «صالح المقتول» . وفى أثناء عرا كنا زادت
حدة نباح الكلاب ثم سرعان ما تلاشت بعد هروبها وهروب أصفياء وخدم
«صالح المقتول» ننظر اليهم بينما كانت حدة قشعريرتى تزداد .

بقيت واقفا مكانى بعد أن ضمنى اليه صديقى حسين النادل . لم يمض وقت
طويل حتى عاد جميع من هربوا وهم يلهثون بينما كانت تنتهى الى مسامعنا
أصوات الكلاب .

ظنناهم قد عادوا لمتابعة العراك فاستعددنا لذلك لكن انتهى الى مسامعنا صوت
أحدهم وهو يقول :

«تمركزت الكلاب فى كل طرق البلدة ولم نستطع المرور فماذا نفعل ؟» .

لم يجب أى منا بل كل واحد الى الآخر بصمت . ربما لاننا لم نكن ننتظر
ذلك الخبر وربما أيضا لعدم قدرتنا الجواب عن ذلك السؤال .

انتبهت وأنا أجيل نظرى فى الحاضرين الى جلوس «ناجى العسل» على حجرة
أمام دكانى . لم ألاحظ على وجهه أى ارتباك . كانت تظهر عليه علامات الرصانة
والهدوء وكأنه كان ينتظر أو على علم بكل ما يجرى الآن فما هو سبب ذلك يا
ترى ؟ وهل هناك خيط رابط بين حضور «ناجى العسل» المفاجئ وما يحدث
الآن ؟ أم الصدفة وحدها هى التى أفرزت هذا الربط فانفعال «ناجى العسل»
الى درجة الإبحار لدفن جثة «مبروك الحفيان» فى قرية الشحاذين أى خارج
أرض «أنف العفة» وجهوده الآن أمام ما يجرى أمر يدعو الى التساؤل فما هو
سبب ذلك يا ترى ؟

يوسف عبد العاطي

السبت 21 ديسمبر 1986

الاستجواب ...

- الله يعينك ...

قال فتحنى لعبد القادر الذى كان منهمكا فى عزق الارض . وقد باعد ما بين ساقيه ، ومال بجسمه الى الامام فى انحناء شديد حتى كاد جبينه يلامس التراب .

- الله يهنيك .. أهلا سى فتحنى .

رد عبد القادر . وقد توقف عن متابعة تقليب أديم الارض . وألقى بالمسحاة جانبا ، وانتصب واقفا . وشرع يجفف العرق المنحدر من جبينه ووجهه بظاهر يده .

وبعد أن التقط أنفاسه نظر الى فتحنى وقال له :

- هل من خدمة أؤديها لك ؟

قال فتحنى ، وهو يضع على الارض سلة فارغة كانت معه :

- لقد طلبت منى «الدام» أن أحضر بعض العنب والرمان . فأرجو أن تتخير لنا شيئا من ذلك وتحمله معك الى البيت فى طريق عودتك .. تعرف البيت طبعا ؟

- نعم أعرفه ، ولكن ...

- اذا كنت تجد أى حرج فى ذلك فاجمع المطلوب وضع السلة بمكان ظاهر وسأتى لأخذها بعد انتهاء فترة الدوام .

- لست أعنى ... وانما اردت ان اقول ...

كان يريد أن يسأله ان كان استأذن المدير فى ذلك أم لا ؟

انه صهره . زوج ابنته - يعنى أسرة واحدة . فهل يعقل أن يضمن عليه بقليل من الثمار المتأتية من باب الله ، وقد فرش له اللحم والدم ؟

وينتبه من شروده على صوت فتحى يسأله :

– ماذا أردت أن تقول يا عم عبد القادر ؟..

– لا .. لا شئ .. تفضل فى كل وقت .

– بارك الله فيك .. السلام عليكم .

– وعليكم السلام ورحمة الله .

وعاد يقلب الارض بمسحاته . ينضحها بقطرات عرقه المتساقطة دون انقطاع،
ويدفن فى صدرها آهاته وأوجاعه :

– هه !! هه !! هه !!

قميصه الرمادى البالى قد التصق بجسده الاسمر النحيل الذى صهرته
شمس الجنوب الحارقة من شدة العرق . وحان الوقت ليعود الى بيته وأهله
ويستريح من عناء ذلك اليوم .

اغتسل من ماء الحنفية القريبة ، ثم اقتطف بعض العنب والرمان ، وسار
يقود دراجته القديمة الصدئة .

بمدخل الادارة وجد الحارس الليلي مقتعدا كرسيه الحديدى غير بعيد كعاداته
فالقى عليه تحية المساء وركب دراجته ومضى غير حافل بنظراته الفضولية
المتلصصة الى السلة المعلقة بمقود الدراجة . وخطر له فى لحظة عابرة أن يعود
اليه ويخبره بأمر السلة لكنه لم يفعل .

فى ضحى اليوم التالى بينما كان يقوم بتأدية عمله بالحديقة جاءه الحاجب
وسلمه ظرفا قائلا : انه من المدير .

وعاد من حيث أتى

قلب الظرف بيمينه فى حيرة وتساؤل : (ترى ماذا يحوى بداخله ؟ أتكون
ترقية ؟ أم جراية الاولاد المتأخرة ؟ لعله قرار بالنقلة . لقد طلب النقلة فى العام
الماضى) .

ووجد نفسه مشغول الفكر بأمر ذلك الظرف . لقد فاته أن يسأل الحاجب عن فحوى ما به . فهو لا يحسن القراءة . سيذهب به الى موظف المخبر ، انه انسان كريم الخلق خدوم ، متواضع .

ولم ينتظر . وكم كانت دهشته عظيمة حين أخبره الرجل بان المدير قد وجه اليه استجوابا يستوضحه فيه ان كان أخذ شيئا من ثمار الحديقة عشية نهار أمس .

نظر الى مخاطبه فى ذهول لا يكاد يصدق ما ألقى اليه متمتما فى شرود :

– استجواب لى أنا ؟..

انها المرة الاولى فى حياته العملية التى يوجه اليه فيها استجواب من مسؤول.

ويسأله موظف المخبر فى اشفاق :

– ما الامر يا سيد عبد القادر ؟

تنهد فى عمق وقال :

– قبل أن تسألنى عن أصل الحكاية قل لى أولا ما هو المطلوب منى ؟.

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

– أن تجيب عن سؤال المدير طبعاً .

وبعد ؟..

– لا أدرى ..

تهالك على أحد المقاعد وروى لمخاطبه حقيقة ما حدث بالامس دون زيادة أو نقصان وهو ينتفض من الغيظ مرددا فى حرقه وألم :

– لم يبق الا ان اطعن فى شرفى وأمانتى ، وأوصم بالسرقة فى آخر العمر .

وتحمل الرجل جاهدا على تهدئته وتطيبب خاطره قائلا :

– لقد كنت على يقين من وجود التباس فى الموضوع .

وما دام الامر كما تقول فلا أرى سببا يدعوك لكل هذا الانفعال . وما عليك الا ان تعتبر الامر كأن لم يكن .

بالدخول عليه . وفى هذه الاثناء انفتح باب مكتب المدير ،الداخلى المتصل بمكتب
الكاتبة وأطل منه رجل كهل لم يسبق له أن رآه من قبل ، طويل القامة ، ضخم
الجسم ،أبيض البشرة قال للكاتبة .

– اذهبى الى المقتصد وقولى له أن يأتى ومعه كل الملفات والوثائق الخاصة
بالدخل والصرف ..

ألم يأتوا بعد لاصلاح الهاتف ؟ .

قالت الكاتبة وهى تغادر المكتب :

– كلا يا سيدى ، لم يحضر أحد حتى الآن .

والتفت الرجل الغريب الى عبد القادر قائلا :

– سمعتك تلح على مقابلة السيد المدير هل تريده فى موضوع خاص أم له
علاقة بالعمل ؟

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

– بل فى أمر يتعلق بالعمل .

– وما ذاك ؟

رفع عبد القادر يده الحاملة للظرف وقال :

– أريد أن أعطيه هذا الاستجواب وأتحدث اليه بشأنه .

– هات .. أرنى .

ومد الرجل الغريب يده طالبا تسليمه الظرف .

تردد عبد القادر قليلا قبل أن يجيبه الى طلبه . وحانت منه التفاته الى داخل
المكتب فرأى المدير جالسا أمام مكتبه لا خلفه وقد بدأ حزينا منكسرا ضئيلا .
لم يكن يتصور أن يراه فى يوم من الايام على تلك الصورة . وينتبه على صوت
الرجل الغريب وهو يسأله عن اسمه فيناولله الظرف ويجيبه :

– اسمى عبد القادر يا سيدى ... عبد القادر مصدق .

صاح عبد القادر فى قهر وهو يكاد يجهبش بالبكاء :

- لقد اتهمت بالسرقة .. لن تقدر أن تتصور مدى بشاعة ومرارة أن تتهم بارتكاب خطيئة لم تقتربها ما لم تمتحن بذلك ... ألا لعنة الله على كل فاسق زعيم مشاء بنميم ... لا علينا ، أرجو أن تتفضل وتكتب لى الرد على هذا الاستجواب .

- حاضر .. فقط أرجوك أن تهدأ وتنسى هذا الامر .

واثر ذلك ودع الرجل بعد أن شكره وأثنى عليه وسار وفى قلبه نار تتلظى متسائلا بينه وبين نفسه : (أيعقل بعد كل هذه السنين من العمل ، والاخلاص والتفانى والطاعة أن تصبح أمانته موضع شك وريبة ؟. قلبه لم يخدعه . و(القلب خبير مولا) كما يقال فى الامثال عندما أشعره للوهلة الاولى التى وقع نظره فيها على السيد المدير بأنه انسان سىء لا يؤمن جانبه ، وتوقع بأن العلاقة بينهما سوف لن تكون على ما يرام .

لنفترض أن نفسه سولت له أخذ شىء من ثمار الحديقة . أفليس من حقه ذلك . فهو محيىها ومخضرها وراعيها . ترابها اختلط بعرقه وتشبع بأنفاسه ؟

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ثم أليست هى آخر الامر ملك الدولة ، فبأى حق اذن يستمتع بخيراتها وحده . ولعل الصواب أن يعود ربعها الى خزينة الادارة ؟

جلس فى ظل احدى الاشجار يفكر فى حاله وفى حال هذه الدنيا العجيبة المقلوبة الاوضاع . واعتراه احساس بالضيق والاشمئزاز حين وقع نظره على المسحاة الملقاة على الارض .

لم يعد لديه أى استعداد لمتابعة العمل .

لن تهدأ نفسه قبل أن يلقي المدير ويتحدث اليه .

وذهب لمقابلته . استقبلته كاتبته الخاصة وأخبرته بأنه فى اجتماع ويتعذر عليه رؤيته . وطلبت منه أن يعود اليه فى وقت لاحق أو أن يسلمها الاستجواب ان شاء . لكن عبد القادر رفض الاصغاء اليها وأصر على البقاء ريثما يأذن له

– ماذا تعمل ؟

– جنان .

– أين ؟ انى لم أشاهد حديقة هنا .

– بحديقة السيد المدير . انها لا ترى من هذا المكان .

– حسنا عد الآن الى عملك . وسأدعوك بعد حين لاسألك عن بعض الاشياء .
وينتاب عبد القادر قلق مفاجئ .. ماذا يريد منه ذلك الغريب ؟

ألا يكفى استجواب المدير له ؟

لا شك أن أمرا خطيرا يحدث فى تلك الآونة خلف جدران مكتب المدير . وهذا الغريب من يكون ؟ من المؤكد أنه مسؤول مهم أكبر من المدير .

وبدأ الهمس واللفظ داخل مكاتب ومعايير الإدارة . المدير يحقق معه مفتش
سام موفد من قبل الوزارة .!

يا لعبث الاقدار منذ ساعة فقط وجه استجوابا لعبد القادر وهما هو الآن
موضع مساءلة . وسرعان ما انتشر الخبر فى المدينة . وكثر الكلام وتعددت
الاشاعات . ولكن رغم كثرة وتباين ما قيل وتردد حول الرجل فان الحقيقة
الثابتة فى النهاية هى ان المدير متهم بالاختلاس وسوء التصرف فى ممتلكات
الدولة وأموالها .

ومنذ ذلك اليوم اختفى السيد المدير ولم يعد يظهر له أى أثر . وتبعته
أسرته بعد أيام . ومن ثم انقطعت أخباره ولا أحد يعرف ان كان اعتقل أو اقبل
من منصبه ، أو نقل الى مكان آخر .

محمد الخموسى الحناشى

قابس فى : 8 / 10 / 1989

تأليف ن. أوسمانوف (*)

تعريب سحنون سعيد

الرواية التونسية فى الثمانينات

تطورت الرواية التونسية فى مدة لا تتجاوز نصف القرن . وتعتبر هذه المدة أقصر فترة تطورت فيها الرواية فى أى بلاد عربية أخرى . وقد صاحب تطور الرواية فى تونس صراع أدبى حاد . وفى خضم هذا الصراع ظهرت أعمال روائية عديدة . فقد كتبت الرواية على منوال الأدب النثرى التقليدى الذى يعتمد كليا على اللغة العربية الفصحى (وذلك يعود أولا الى أن اللهجة التونسية كانت تعتبر لغة العامة وثانيا لأن المؤلفين لم يكن بوسعهم الكتابة باللهجة العامية التى كانت لا تملك قواعد الخط وأصول الكتابة) . كما كتبت الرواية التى كانت تهدف الى تصوير الحياة تصويرا حقيقيا والتى تستعمل عبارات دارجة من اللهجة العامية المستعملة فى الحياة اليومية . وقد شهدت هذه الفترة تغييرا فى مواضيع الرواية التونسية وأصبحت المواضيع التى تستجيب الى طلبات المجتمع محور هذه الكتابات .

ولقد انتقل هذا الأدب من الرواية التربوية التعليمية أو التثقيفية الى الرواية التاريخية القادرة على ايقاظ الوعى القومى مثلما هو الحال فى البلدان العربية الأخرى . وبعدها أصبح الروائيون يعيرون اهتماما خاصا الى موضوع معركة التحرير الوطنى باعتباره موضوعا حيا ومعاصرا ، متمييزا بذلك الكتابة الواقعية ومبتعدين عن الأسلوب الاستعراضى الصحفى الذى يطغى عليه السرد، وهنا تكمن الصعوبة . وبحصول البلاد على الاستقلال ترشح موضوع الحركة التحريرية الوطنية الى طليعة المواضيع الروائية الى جانب مواضيع اجتماعية أخرى فرضتها الظروف الجديدة وأخذت الروايات التى تطرح قضايا الشغل

(*) ن. أوسمانوف ، رئيس قسم اللغات الشرقية بمعهد موسكو للعلاقات الدولية التابع لوزارة الشؤون الخارجية السوفياتية .

والانتاج بطريقة تجلب الانتباه . وتتمحور هذه الاعمال حول دور النقابات وتكوين وتطوير التعاضديات . ثم ظهرت مسألة البطالة كاحدى المسائل الاجتماعية الحادة . ثم مسألة مكان ودور الشباب فى حياة البلاد ثم موضوع الهجرة الذى هو فى علاقة مباشرة بالموضوع الاول الخ ...

واذا كانت الرواية التونسية قد عرفت فى فترة 1960 - 1970 تطورا كبيرا فقد شهدت فى فترة الثمانينات ركودا ملحوظا خاصة من الناحية الكمية . ويرجع ذلك الى عدة أسباب .

أولها التركيز على اعادة طبع الكتب المعروفة والتي لقيت نجاحا وشهرة فى الفترة السابقة . فقد أعيدت طباعة عدة أعمال حازت إعجاب القراء بمختلف اتجاهاتهم ، ويمكن أن نذكر مثالا على ذلك بعض كتابات البشير خريف التي كانت تعتبر مثالا ناجحا لاستعمال اللغة الدارجة الشعبية التونسية . وهذا الاهتمام له علاقة متينة بتطور الاتجاه الذى يمكن أن نسميه « بالواقعية الانتوغرافية » والذي هو بدوره يقترب من « الواقعية الجديدة » . ويتميز هذا الاتجاه باهتمامه بحياة الريف والقرية كرواية « واحة بلا ظل » لعمر بن سالم الصادرة سنة 1979 وبعض الروايات التونسية الأخرى التي لا تزال الى يومنا هذا تجلب انتباه القراء .

ومن جملة الاسباب التي أدت الى كساد الرواية فى فترة الثمانينات يمكن أن نذكر الشروط المجحفة التي يتطلبها هذا النوع الجديد من الكتابة . فقد كان على الكتاب أن يتشبتوا مليا أثناء تركيب القصة وأن يهتموا أشد الاهتمام بالناحية اللغوية وأن يقوموا بالتحقيق والتحرير بأنفسهم (فالى يومنا هذا تعتبر معاهد التحرير فى البلدان العربية غير متطورة ولربما هناك جوانب ايجابية لذلك) .

وباختصار فقد كان على الكتاب أن يهتموا اهتماما خاصا بكتاباتهم وأن يولوا عناية دقيقة لأعمالهم الشئ الذى أدى الى نقص فى عدد الكتب المطبوعة ولا ننسى أيضا رد الفعل التلقائى على تطور أى نتاج روائى فى الفترة السابقة ، فقد كان يجب هضم المواضيع المنشورة وتقييمها ودرسها والأخذ بالجوانب المهمة فيها أو محاولة البحث عن أشياء جديدة لم تنشر من قبل .

زيادة على ذلك فإن عشرية الثمانينات لم تنته بعد وربما تظهر بعض الروايات المتميزة فى أواخر هذه العشرية أو فى أوائل التسعينيات مثل ما حصل مع الآثار السابقة التى نشرت فى أواخر السبعينات .

تعتبر رواية « الرحيل الى الزمن الدامى » للكاتب الشاب مصطفى المداينى (ولد سنة 1951) أول قصة نشرت فى عشرية الثمانينات . ولا تعالج هذه الرواية مثل ما قد يوحى به عنوانها معارك التاريخ الغابر . فهى ليست قصة تاريخية (وهذا الضرب من الروايات يندر فى الكتابات الروائية التونسية الحديثة) بل هى « رواية الزمان » ويتمحور موضوعها حول مسألة تداخل الزمن وعلاقة الحاضر بالماضى الذى يتداخل مع الحاضر ويصير بذلك الماضى والحاضر وهمين ويبدو ذلك فى مدينة «عالية» السرية أين ازدهرت العلوم وسادت العدالة ، ولكن الرمال أحاطت بهذه المدينة ثم نسفتها ولم يبق منها أثر .

تسود فى كامل الرواية فكرة تصارع قوى الخير والشر ، البحر الذى يربط بين البلدان والشعوب والأزمان ويرمز الى قوة الخير ، والشمس التى تقضى على الانسان وانتاجه وترمز الى الشر .

وهنا يتضح أن رواية « الرحيل الى الزمن الدامى » لمصطفى المداينى (ليبيا - تونس 1981) تنتسب الى الاتجاه الذى رسمه المسعدى خاصة بروايته « مولد النسيان » 1974 ، فأذا طغى على رواية المسعدى صدى النزعة الصوفية الاسلامية . ويتجلى ذلك على مستوى اللغة - فان رواية المداينى يصعب تحديد اتجاهها الفلسفى ان وجد .

«عدلي» بطل الرواية طالب رسام من مواليد احدى القرى الجبلية ، وعدلي هذا يحب ريم ، ابنة تونسى وايطالية ، وهى أيضا طالبة تهتم بدراسة الفلكلور والعادات القديمة ، أى ما يمكن ما نسميه بالأتنوغرافيا ، ذهبت ريم مع عدلى الى مسقط رأسه لتجمع معلومات حول بطل شعبى يدعى زركوية تناقلت حوله الروايات عن أنه لا يزال حيا وقد رأوه فى احدى المدن أو القرى .

وقامت ريم برحلة صحبة عدلي فى الجبال وتعرفت على حياة القرية أين أثار انتباهها تصرف غريب لمجنون يدعى كركورى ، وقد كان سكان القرية حزانى ولم يستطع عدلي فهم تصرفهم الغريب لقد كرروا أكثر من مرة

«... هذا صنعه كركوى» ولكن ماذا صنع كركوى هذا ما لا نعلمه . وهناك اشارة فى آخر الرواية ، الى أن لذلك علاقة بموت زركويه ، هذا الموت الذى جلب الى الناس مصائب كثيرة .

وتعرفت ريم على فتاة فائقة الجمال تدعى خديجة كان يحبها عدلى سابقا ، وقررت ريم أن تترك عدلى الى خديجة . وتركته وسافرت الى مدينة تونس ثم الى اليمن أين التقت بمقاتل فلسطينى يدعى كرامى قررت أن تتزوجه حتى تعينه على القتال .

وسافر عدلى الى مدريد للدراسة . وفى الطريق تعرف على فتاة اسبانية تدعى « باندور » ولكنها سرعان ما تركته وسافرت الى الشرق الاقصى صحبة مجموعة شبان « هيبيز » مولعين بمعرفة غرائب الشرق . وعاد عدلى الى تونس .

ظاهريا هذا هو موضوع هذه الرواية ولكن هناك تفسيرات أخرى متعددة لهذا العمل فجان فونتان المستشرق الفرنسى الذى يعيش فى تونس يرى مثلا أن خديجة ترمز الى الحياة اليومية والدفع الانسانى وشعور الامومة . أما دور ريم فهو دور المحرك ، فهى بجانب صديقها تفتح ليقسها تاريخا يعتبره هو نداء غريبا وتعتبره هى عملا . أما باندور الاجنبية فهى السر المرتبط بالماضى العربى الأندلسى

يمكن أن نجادل فونتان فى قومه هذا . ويمكن أن نتفق معه إذ أن هذه الرواية ليست من الآثار ذات التفسير الواحد . وقد حاول الكاتب أن يعطيها بعدا فلسفيا . وعلى كل الأحوال تعتبر هذه الروادة من الأعمال العسيرة الفهم . يدل تركيبها على تفكير عميق . ويأتى فيها السرد على لسان بعض الشخصيات التى تكتسى بعدا تاريخيا مثل ابن الهيثم عالم الفلك المعروف فى القرون الوسطى والأمير الخ .

وتتركب الرواية من ثلاثة أقسام يمكن تفصيلها الى أجزاء صغيرة . يتركب القسم الاول من الأجزاء التالية : « عدلى مصطفى » ، « زركويه يختفى ليظهر القسم الاول من الأجزاء التالية : « عدلى مصطفى » ، « زركويه يختفى ليظهر ابن الهيثم ، والجزء الثالث على لسان زهران الامير ، والرابع على لسان ابنة

سعيد ، والخامس على لسان بحار يدعى عمار . ويعتبر عنوان الجزء الاخير بالقسم الثالث والذي يختم الكتاب معبرا جدا : عدلى مصطفى يعود الى المنبع ليغتسل .

تعتبر عودة الكتاب التونسيين الى « الرواية الرمزية » هامة بالرغم من أن هذه الرمزية عادة ما تأتي ساذجة بقطع النظر عن صعوبة التركيب الظاهري . وتعتبر هذه الظاهرة عن البحث عن طرق ابداعية جديدة وعن رغبة فى خلق أنماط كتابية مبدعة تختلف عن الوجهة العامة لتطور الرواية العصرية فى تونس .

ولكن فى اطار التأثيرات الفلسفية المختلفة من الصوفية الى الوجودية يبقى موضوع « الجذور » و « الاصول » هو الموضوع المميز للكتاب التونسيين والمغاريين عامة الذين يكتبون بالعربية وبالفرنسية (انظر بروجوتينا ، « اعمال الادباء المغاريين المكتوبة بالفرنسية فى الستينات والسبعينات » (موسكو 1980 - ص 262 - 264) . ويجسد ذلك فى القصة عن طريق شخصية زركويه الاسطورية الذى يعيش خارج الزمن ، يعيش فى فترة القرون الوسطى ، يتجادل مع أناس مختلفين ويسكن القرية التى أتى منها عدلى ، يتزوج من فتاة من هذه القرية ويموت قبيل رجوع عدلى مع ريم الى أهله .

<http://Archivebeta.Sakrill.com>

ويحمل زركويه معه الخصوبة والاضرار والامطار النافعة . فكلما غادر مكانا الا وعمه الجفاف والجوع . زركويه هو روح الشعب الابدية التى توجد خارج الزمان . وعندما يلتحم ابن الشعب به أى بزركويه يعرف السعادة الحقيقية « يغتسل فى مياه العين الحية الخالقة » .

ولنتذكر كيف يقدم هذا الموضوع فى رواية الفارسي « المنعرج » اين تظهر تقريبا نفس الشخصية « مالك الارض » وفكرة « العين الحية الخالقة » التى يغتسل فيها البطل ليتمكن من وعي منزلته ودوره فى حياة وطنه .

ان القرية التى يصورها المداينى تبدو وكأنها توجد خارج الاطار المكاني والزمانى بالرغم من ان الرواية تحتوى على بعض المعطيات الزمنية) ففيها تظهر « النبىات » ومخاطبة المسيح أو المهدي (أنظر ص 31 - 32) ويرى البطل وريم بلدانا غريبة : واحلاما مضطربة فيخيل اليهما فى المنام ، أنهما يلتقيان بالماضى

«فأذا بى وحيدا فى صحارى الضياع ولا من مجيب وأهل القرية ينتظرون منى تحليلا واجهادا وكانما هتف بى الهاتف ان اقوم بالواجب ... فأنا الذى فطر على المعرفة ... وقد جبت الآفاق وتمرست بفنون متعددة» (ص 72) . وفى شخصية عدلى تتكرر شخصية بطل رومنطيقى ذو قدر مأساوى كما هو الحال عند المسعدى . يعى البطل وحدته ويطمح الى الاغتسال فى المنبع . وفى حكاية زهران الامير يتكرر موضوع رومنطيقى معروف : الغراب النحس والطائر العجيب الذى يتنبأ بنهاية مدينة العلم «عالية» . ونجد كذلك بعض مظاهر الفلسفة الصوفية «ما من كائن الا زائف الوجود ، وكل وجود فى اصله عدم ، وما العدم الا تحقيق لهذا الوجود الزائف (ص 96)» . وتوجد هذه الاطروحات فيما بعد عندما تتضح ماهية زركويه ككائن ربانى «منتظر منذ القديم» (ص 97) . يتحدث زركويه عن خدمة كل ما هو موجود «ستعلمون بعدها ان البحر ليس احسن حالا من المدن ، وان الامطار التى لم تأت ليست الا خدعة ، وأن الانهار الجارية فى الكون ليست الا دليلا على خيبة الامل» (ص 99) ولا يمكن للانسان ان يتطهر الا عندما يحس بعلاقته بالماضى وقد أحس عدلى بذلك عندما كان يتجول فى اسبانيا ، وبدا له أنه عاش فى الحمراء ، وغرناطة عدة قرون مضت ، وأنه تحدث مع آخر أمير عربى فى اسبانيا ابنى عبد الله . وعندما تذكر ماضيه البعيد تمكن عدلى من الرجوع الى موطنه وأحس بالطمأنينة .

ان هذه الرواية تستحق مثل هذا التحليل لانها تمثل ، كما يبدو لنا ، علاقة تواصل مع الاتجاه الذى بدأه الكاتب الكبير المسعدى والذى لعب دورا كبيرا خاصة فى تكوين الاسلوب الفنى للرواية التونسية . وبالإضافة الى هذا فان رواية المداينى تعتبر الرواية الوحيدة التى كتبت بطريقة جديدة من ضمن أعمال عديدة أخرى ويعتبر كاتبها من أنصار الاتجاه الواقعى فى تصوير الحقيقة .

كما يعتبر المداينى الممثل الوحيد «للاتجاه الفلسفى» فى الرواية التونسية لفترة الثمانينات (يجب أن نذكر نشر أعمال المسعدى فى السبعينات الاتجاه) .

وبالرغم من الوقع الذى أحدثه ظهور الرواية الفلسفية وتأثيرها على زملاء
الكاتب فان هذا الاتجاه لم يؤثر تأثيرا ملموسا على تطور الرواية . ففي سنة
1981 ظهرت عدة قصص تمثل نموذجا من المذهب الواقعى النقدى . يتوخى عادة
ممثلو هذا المذهب أسلوبا كتابيا معقدا تكثر فيه المناظر الموجهة الى الماضى
(الاستعادية) ويتكثف فيه استعمال الصور ذات المعانى المتعددة ، المترابطة
والمتشابهة وكذلك استعمال الحوار الداخلى الخ

وتنتمى الى هذا المذهب كتابات ابن الحاج نصر «صاحبة الجلالة» (تونس ،
1891) ورواية محمد (الباردى) «مدينة الشمس الدافئة» (صفاقس 1981) .

يطرح محمد الهادى بن صالح فى روايته موضوعا طالما شغل التونسيين وهو
موضوع يتعلق بمصير الشبان .

بطل هذه الرواية شاب من قرية صغيرة تعرض لصعوبات شتى لاتمام
دراسته الثانوية . هذه الصعوبات لم تكن تتمثل فى أنه غير متأهل الى مواصلة
تعليمه بل هى صعوبات تكمن فى الخوف الذى كان يعذبه أمام المعلمين
الفرنسيين والتونسيين . كان على أبواب الطرد من المدرسة لانه لم تكن لديه
أقلام وطباشير ملون وأوراق ومعدات أخرى للتصوير ، ولانه لم يكن يرتدى
ثيابا جديدة مثل التلاميذ الآخرين ، أبناء الأغنياء . كان يتعرض للشتيم والتأنيب
لانه يجرى الى المدرسة بلباس قذر ورث . والحال أن والده لا يقدر أن يشتري
له حذاء .

لا يمكن أن نعتبر رواية «الحركة وانتكاس الشمس» من الروايات التربوية .
ان ذكريات الطفولة تمر بصفة دورية بذهن البطل . وكما هو الشأن فى كتاب
«فى بيت العنكبوت» يطرح الكاتب موضوع تشويه (تحطيم) الطفولة الذى
يؤثر على شخصية الطفل وحتى على مصيره فى المستقبل . فهو يشعر بالاجحاف
والخسارة لان أمه وأخته لطختا كرامته بالعار (فى بيت العنكبوت) أو لانه كان
يشعر فى طفولته بأنه منبوذ ، ربيب القدر ، محروم وبائس (الحركة وانتكاس
الشمس) .

فالخوف الدائم الذى كان يقيد روح الطفل يتسبب فى تعقيدات فى داخله
تنعكس على حياته النفسية وتجعله يشق طريق حياته بصعوبة . لنرى كيف

يصف الكاتب السنوات التي قضاها بطله في المدرسة : «انفاسك تختنق .
أعضاؤك ترتخي ، وأنت عاجز عن الحركة في ظلام تسوده السكينة ، العرق
يسيل من جسدك قارصا فلا تحس الا برطوبة كريهة الملمس تحتك فترفع يدك
الى جبينك ثم تحك شعرك وأنت تترجى ... طنين الجرس ... تمر اللحظات
ثقيلة . ثقيلة ثقل الجبال لا يؤرجحها الزمن ... يرتج قلبك كلما دخل أستاذ
أو خرج آخر . كنت لا تسمع الا نغما واحدا : «أين الادوات المدرسية ؟ ...»
(ص 90) .

فالرعب لا يمزق روح البطل فحسب بل يعذب أخاه أيضا ، يحطم مصير
العائلة . فهو الرعب من الفقر ، الفزع من الاحباط والفشل ، الخوف من
الفرنسيين ومن البوليس . أنهى البطل دراسته الثانوية بمعاناة شاقة وتحصل
على الشهادة . لكنه لم يجد مكانه في الحياة . فأخوه «الثوري» المتحمس
يرفضه ويعرض عنه لما رآه عاجزا عن وجود مكان في المجتمع . كان أخوه
يخاطبه «بكلمات كالخناجر» (ص 95) . لقد قال لي : «أين الثورة والثوار ؟
أين الشجاعة والمبادئ ؟ ... قال لي : انه أصبح أبا وزوجا ، طلب مني ان اقدر
ظروفه وأبتعد عنه» (ص 95) .

يبدو أن حياته انقضت ولم يبق له أي مخرج سوى الانتحار ، لكن صدفة
وجد البطل شغلا وفر له الرخاء واحترام المواطنين . مرة طلب منه أحد المعارف
أن يساعده على بيع سروال وقد وفق البطل في بيعه حتى صار يتعاطى بصفة
منتظمة هذه الحرفة التي درت عليه بربح وافر ، فصار يكتري أضخم الحوانيت
حتى اتسع دخله وراجت تجارتها . وهكذا نرجع الى أول الرواية حيث نرى
أمامنا رجل أعمال ناجحا ، سعيدا بما حققه في حياته ، يتذكر في حيرة وفزع
ماضيه «المثالي» عندما كان يتوق الى شيء خفي مجهول مفكرا في خير الانسانية .

في قصة بن صالح تعالج بطريقة تهكمية قضية هامة في حياة المجتمع
التونسي وهي قضية المثقفين (خاصة منهم الشبان) ومكانتهم ودورهم في البلاد .
يظهر لنا الكاتب الامتحان التدريجي والميول البورجوازية للطبقة المثقفة وخاصة
المثقفين الذين هم من أصل ريفي والذين يمثلون الجزء الأكبر من هذه الطبقة ،
فاذا كان خريجو الزيتونة في فترات مضت يطمحون الى التدريس في مدارس
عادية وأحيانا في الزيتونة (لنتذكر ترجمة العديد من الكتاب الروائيين

التونسيين) فهم في الوقت الحاضر وبحكم عددهم المتزايد (المثقفين) صاروا يبحثون عن طرق أخرى لان هذه المدارس لا تستطيع استيعابهم . فهذه القصة اذن قد كتبت بنموذج عصري ، استعمل فيها صاحبها طريقة التركيب المعقد والصور ذات المعاني المترابطة والمناظر الموجهة الى الماضي فهذه الرواية في نظرنا تعتبر من أحسن الانتاج الروائي التونسي المعاصر وخاصة لان بن صالح بفضل جراته لم يخش طرح بعض المسائل الشائكة المتعلقة بمجتمعه . وبالرغم من أنه لم يستعمل الا اللغة الفصحى في خطاب أبطاله فان الحوار في القصة كان طبيعيا ، بعيدا عن الكلام المصطنع وذلك يرجع الى أن الكاتب كان يستعمل الحوار القصير المقتصد ويعتمد الحوار الداخلي (الباطني) الذي ربما تؤديه اللهجة العامية بتكلف .

تتميز الرواية التونسية في الثمانينات بمعاصرتها البارزة فالروائيون التونسيون لم يتخذوا في كتاباتهم الاتجاه الواقعي فحسب بل اعتمدوا أيضا طرقا عصرية في الكتابة وابتعدوا عن السرد الممل وتبليغ الاحداث حسب ترتيبها وتسلسلها الزماني ، وابتعدوا أيضا بعض الشيء عن الواقعية الجديدة التي طغت في أعمال الروائيين في العشرية السابقة فقد طرحوا مواضيع حية مثل موضوع الريف والتعاضديات ومشكلة اضمحلال القرى الصغيرة التي تركتها أهاليها قاصدة المدينة أو معترمة الهجرة . نغني منها بالذكر روايات محمد الباردى «مدينة الشمس الدافئة» (تونس 1981) و «الملاح والسفينة» (تونس 1982) ويبدو لنا أن هذه الاخيرة قد تأثرت برواية «واحة بلا ظل» : رفض الفلاحين الاشتراك في التعاضديات ، مظاهرات احتجاج ، اعتقالات ، مغامرات غرامية الخ ... وهذا التشابه لا يرجع في نظرنا الى تأثير أو تقليد أدبي فقط بل يرجع قبل كل شيء الى وضع كان يسود في البلاد وجد انعكاسه في الآثار الادبية . ومن الملاحظ أن الفن الروائي التونسي في السنوات الاخيرة احتل مكان القصة (القصة القصيرة والاقصوصة) وصار نوعا فنيا أكثر حركية . ويبدو لنا أن هذه الظاهرة صارت منتشرة في الادب المعاصر للعديد من البلدان حيث صار الادباء يميلون الى كتابة أعمال أكثر طولا وأكبر حجما .

في رواية الباردى يمتنع المهندس بطل الرواية عن الاشتراك في التعاضدية مصرا على زرع أرضه بنفسه ، تلك الأرض التي زرعها أجداده قرونا .. وهنا

نلاحظ نزعة تميز بها الكتاب التونسيون وهي نزعة «التشبث بالاصالة والرجوع الى الجذور» كأنجح حل لتطوير وازدهار البلاد .

من أهم الآثار التي تميزت بها الرواية التونسية في الثمانينات هي رواية عمر بن سالم «دائرة الاختناق» (تونس 1982) نلاحظ أن الكاتب لم يلتجئ الى التلاعب بالالفاظ ولا الى الاساليب الفنية المنمقة كما هو الحال بالنسبة الى عدة روائيين . فتركيبية هذه الرواية مدروسة للتطور المنطقي لاحداث القصة ونلاحظ أيضا وجود خط ميلو درامى كما سبق أن ذكرنا وتلك هي ميزة من مميزات الادب النثرى التونسى (وغير التونسى) . فالجانب الميلو درامى صار عنصرا لازما فى الاعمال التونسية حتى تلقى الرواية رواجاً فى وطنها (ونقصه بالميلو درامية فى هذه الحالة المبالغة فى تشديد الانفعالات الشئ الذى صار عاديا فى أدب العديد) .

تعالج هذه الرواية كالعديد من الروايات التونسية الاخرى مصير الطبقة المثقفة فى تونس من المدرسين) ، هادى من رجال النقابة ، زوجته نورة من عائلة بورجوازية ثرية تزوجت هادى بالرغم عن عائلتها وبدون رضى أمها وأخواتها الذين كانوا يرغبون أن يزوجه لتاجر ناجح . تبدأ الرواية بسرد هادى . يتعرف القارئ على مجرى الاحداث المحيطة بالقصة خاصة ما يتعلق بحياة الزوجين اللذين وقفوا ضد البورجوازية . نورة تحب الهادى وخرجت عن طاعة أهلها وتخلت عنهم لتعيش معه . لكنها كانت تشعر بالفقر والاحتياج وكانت أحيانا توجه العتاب الى زوجها لانه لايملك سيارة وفيلة . وكان الهادى يرد عليها بهزل ومزاح وأحيانا يتشاجر معها لكن سرعان ما يهدأ كلاهما ويسود بينهما جو الالف والتصالح .

يحاول الهادى اقناع نورة بأن الحياة فى الريف أكثر طهرا وعفة بالمقارنة مع حياة المدينة لكنها تختلف معه فى هذا الرأى . فنراها تحلم بالغناء والحياة الثرية لنفسها ولابنائها (لنتذكر حوار نورة الباطنى (صفحة 24 و25) . فالاجزاء الاولى فى هذه الرواية وقع سردها فى لهجة الحياة اليومية اين كثرت اقوال من «الحكمة الشعبية» مثلا «اذا كنت لا تستطيع أن تخضع هذه الحياة فهى التى تخضعك» ، «هذه الدنيا لعبة حظ والارزاق تارة تجيء وتارة تغيب» (ص 31)

فهذه الحكم تنتمى الى نورة وبعبارة أصح الى أمها التى تتحسر على ابنتها وتبكي حظها التعيس . ابنتها التى تسكن فى شقة ضيقة والتى كان بإمكانها أن تسكن أفخم الفيلات وتتزوج أحد أصدقاء أبيها أو اخوالها الذين خطبوها . لما تقول نورة لامها : ان الناس يختلفون فان هذه تجيبها «الفروق هذه من عند الله . لا دخل للانسان فيها . الارزاق تقسم بقدرته تعالى ، ولا اعتراض على قسمة الله» (ص 51) لقد أتقن الكاتب دبلجة اللغة الفصحى باللهجة العامية التى استعملت فى الرواية بصفة محدودة جدا (كلامثال الشعبية التى تستخدمها طبقة التونسيين غير المتعلمين والتى تنتمى اليها أم نورة بالرغم من ثرائها وغناها) والتى أعطت لحوار الإبطال نفسا طبيعيا .

فى مرة من المرات تأخر الهادى عن الرجوع الى البيت حتى صارت نورة تعتقد أنه قد وقع اعتقاله . وكان الكاتب يمهّد فى هذا المشهد حادث القبض على الهادى ومحاكمته وهنا تبلغ أحداث الرواية أوجها . وتعاد كلمة «الاختناق» مرات عديدة ويتشابك نص الكاتب وحوار البطل الداخلى فى مجرى موحد وهو سبيل الحياة العادية . فى هذا السبيل تتشابك بطبيعة الحال ذكريات حول زميل للهادى فى العمل النقابى وهو الذى روى كيف هجم البوليس على مقر النقابة (هيئة النقابة) وأوقف الاعضاء النشطاء ومارس تعذيبهم . ويتجسم تفاقم التوتر فى القصة فى الاكثار من الحوار الداخلى المضطرب والقلق وتعدد المناظر الموجهة الى الماضى (انظر ص 109 و 111) وفى آخر الامر يقبض على الهادى . وتطلب نورة مساعدة أهلها لكن دون جدوى بل بالعكس كانت أم نورة لا تخفى فرحتها وتعتبر أنه قد حان الوقت كى تطلق ابنتها ذلك الفقير وتتزوج رجلا من وسطها .

تتيقن نورة من أن أهلها لن يساعدوا زوجها «البروليتارى» على محنته (ص 122) فيقع فى داخلها تحول ويصور لنا الكاتب كيف تبتعد عنها «بورجوازياتها» فتصير لا تفكر فى الثياب الفخمة والقصور الشاهقة بل تعتزم جادة ، اذا رجع زوجها سالما ، أن تساعد فى عمله وتكون بجانبه فى ساحة النضال (ص 127) . وصارت نورة تعرض عن عدة طبائع وعادات تتميز بها الطبقة البورجوازية الصغيرة الضيقة الآفاق كتتبّع الطوالع الذى كان يجلب سخرية الهادى وتهكمه .

لقد طردوا نورة من شغلها لما علموا بايقاف زوجها ولم تتمكن البطلة من الحصول على شغل آخر وكان رزقها الوحيد هو المساعدة التي كانت تتكرم بها زميلاتها في عملها السابق ورفاق زوجها (انظر ص 143 وما بعدها) وتضير الرواية أكثر انفعالا : «سلاح الضعفاء دعاء لو دعوت عليهم يا نورة على الجبابرة بلا استثناء . خلصى منهم الارض والناس بدعوة من فيك . ألا تؤمنين بأن دعاء المظلوم مستجاب ؟.. ها أنت قد فهمت الآن فلسفة الصمود لا خوف عليك بعد اليوم أصبت كبيرة» (ص 151) .

من وراء هذه المقاطع يرمز الكاتب الى التغيير الذي عاشته نورة وتحولها الى انسان ناضج ، قادر على اجتياز أصعب التجارب والمحن . وتكرر في الرواية مثل هذه المقاطع في نفس الاسلوب : «متى يطلع النهار وتسطع الشمس ؟ متى تكف عن محاربتنا الانواء ؟ الريح العاتية تقتلع قوادمي . أجنحتي بدأت تضعف ، وكهوف اليايسة ملأى بالحيات . الوحوش جوعى تتربص بالطيور الواهنة . الحجارة ملساء غطاها القطران . الكهوف باتت فخا للاموت ، والاشجار اجتثتها الزوابع . الظلام يقهرني ، ولا حيلة لي الا الانتظار» (ص 152) .

مثل هذه الظاهرة يمكن ملاحظتها في تدرج الرواية (مثلا ص 175 و 179 وغيرها) . ولعل الكاتب يعجز أحيانا عن نبليغ الخطر والاحاسيس وعن التوتر الذي يسود في داخل أبطاله فتراه يلجأ الى اللغة المنمقة والاساليب البلاغية والحوار الداخلي المطول (انظر حوار نورة الداخلي ص 181) وفي النهاية وبعد انتظار طويل تشهد نورة ساعة الحكم على الهادي ورفاقه . لم تكن نورة تنتظر قضاء عادلا لكن الحكم كان على أشد قسوة ، الشيء الذي جعلها تفقد كل الآمال في نجاة زوجها . تمكنت نورة من مقابلة الهادي في سجنه وذلك بمساعدة أحد الحراس ثم لما تم نقله الى سجن بعيد بقيت وحدها وكان مصيرها الجنون.

لقد لقيت هذه الرواية نجاحا كبيرا في وطن الكاتب (أعدت ترجمتها الى اللغة الروسية) وسبب هذا النجاح واضح . فهو يرجع الى أن القارئ التونسي تشوق الى مثل هذه الكتابات المؤثرة واللغة المنمقة التي تساعد على تقوية مسحة التوتر في الرواية . وكل هذا يحدث وقعا ايجابيا في نفس القارئ . كما نلاحظ في هذه الرواية مزج الطرق الكتابية المعاصرة بالاسلوب الرومنطيقى الميلودرامي الذي كان ناجحا كل النجاح الشيء الذي شارك في رواج الرواية .

فى سنة 1982 صدرت مجموعة كبيرة من الاعمال الروائية منها رواية محمد صالح الجابرى «ليلة السنوات العشر» (تونس 1892) التى تتميز بتحليل ببيكولوجى لنفسية البطلين مروان ولمياء اللذين تقابلا بعد فرقة دامت عشر سنوات رواية شيقة تطرح قضايا الحياة اليومية تتميز بأسلوب جديد لم تتعود عليه الرواية التونسية . يقترب هذا العمل من الواقعية الجديدة «على الطريقة التونسية» وهو شأن الاعمال السابقة لنفس الكاتب .

نذكر أيضا الرواية القصيرة «ألف لا شىء عليه» للكاتب محفوظ الزعبي (تونس 1984) . يقول الصادق شرف فى تقديمه لهذه «الرواية التصويرية» ان عمل الزعبي يعتبر رواية بآتم معنى الكلمة بالرغم من صغر حجمه (88 صفحة) وذلك يرجع الى صبغته الملحمية وقدرة الكاتب على اختراق نفسية الابطال وتحليلها (انظر ص 3) . كما تصدرت هذه الرواية كلمة موجهة الى القارىء كتبها الشاعر والناقد الادبى يوسف رزوقة يطرح فيها المبادئ التى اتبعها الزعبي فى هذا الاثر والتى تقترب من مبادئ الواقعية الجديدة (لنتذكر «بيان» ابن أبى ضياف فى مقدمة لكتابه «يوم من العمر» والذي كتب من عشر سنوات تقريبا حيث يطرح الكاتب مبادئ الواقعية الجديدة فى الرواية التونسية المعاصرة) . يقول يوسف رزوقة فى هذه الكلمة التقديمية : «للتمشي مع هذا العمل الروائى ، لا بد لك أن تتسلح أيها القارىء بثقافة القروى : أن تتواصل معه ومع عمله الشاق ، فى عاداته الحميدة والسيئة ، فى تناوله السطحي للمواضيع والامور المختلفة ، فى أحلامه المستحيلة والممكنة ، فى موته اليومي المتكرر ، الخ ... وأن تتمرن على التفاعل مع ذلك العالم القروى ، وعلى التوقف عند أدق جزئياته التى وان كانت تبدو على قدر من اللاهمية – تستحق تحليلا دقيقا وعميقا قد يكشف عن معان شتى وإيحاءات دلالية تؤدي بالتأكيد دورها الوظائفى فى الحقل الدلالي» (ص 4) .

يطرح الزعبي فى هذه الرواية مشكلة انغلاق المجموعات البشرية الصغيرة على نفسها وغياب العلاقات فيها حتى ما جاورها من القرى ، قضية انعدام الاهتمامات «الموت اليومي المتكرر» كما عبرت عليه كلمة التقديم . ويضيف يوسف رزوقة : «واستطاع أيضا من خلال عملية الرصد المتأنتية أن يلم ببعض الجزئيات الهامة التى أضفت على العمل الروائى ظلالا متميزة . فمحفوظ الزعبي فى روايته هذه ، يمثل الواقعية تمثيلا صادقا ، لا غبار عليه ، ونقل الى القارىء خبر القرية المنغلقة على نفسها ، وحياة القروى بأطاييبها ودراماتها .. ويمكن

المدينة من فرصة الالتقاء مع أوجه القرية المتعددة من خلال ما قدمه لها من شروح أو تفاصيل لهذه الجزئية أو تلك» (ص 4 و 5) .

مكسب من مكاسب النثر التونسي المعاصر تعتبر في نظرنا رواية «أبو جهل الدهاس» (تونس 1984) لعمر بن سالم وهو من المبدعين النشريين الموهوبين الذين تميزوا بإنتاج سخي . يكرس الكاتب روايته لطرح قضايا تتعلق بمصير الريف ، مصير الشباب والطبقة المثقفة ، مصير التونسي المهاجر الى الخارج وواقع حياته في الغربية في فرنسا « أرض الميعاد » ، قضية اصطدام القديم والحديث ، الجمود الذي يقضى على كل شيء جديد وحى . قضية اصطدام الحديث الذي يبعد عن المثالية بالقديم الذي لا يخلو من النقائص لكنه في نفس الوقت يحمل في طياته مفاهيم العظمة والكمال الخ ...

تعدد المواضيع المطروحة في هذه الرواية يدعم بتنوع في الأسلوب الكتابي والفني : كتضارب الماضي والحاضر المرتبطين ببعضهما أشد الارتباط وتداعي الافكار في الرواية بكلمة واحدة وغيره ...

أراد الكاتب أن يبين هذه العلاقة الوطيدة بين الماضي والحاضر فاستعمل في روايته المشاهد الموجهة الى الماضي والتي توحى لنا بأفكار شتى . ويلعب دور الحوار الباطني في هذه الرواية دورا متميزا وكذلك الحوار المباشر يساعد على معالجة هذه العلاقة .

اختيار عنوان الرواية يحمل رمزا . فأبو جهل هي كنية بطل الرواية (أبو جهل هي شخصية قرشية مشركة تميزت بالعناد وبمقاومتها للمسلمين) .

شيخ متقدم في السن مازال يتمتع بقوة فائقة . كان كبير القرية وعمدها في عهد الاستعمار الفرنسي ولما استقلت البلاد عزل عن هذا المنصب لكنه بقي يتمتع بنفس السلطة وبقي يواصل تنفيذ سلطته لا لأنه كان غنيا وصاحب دكان ولكن بحكم العادة فهو الذي كان عمدة القرية لمدة خمسين سنة . ففي عهد الحركة الوطنية نجا من محاولة قتل قام بها الثوار الوطنيون وبعد الاستقلال هذا الوضع وكان أهل القرية قد نسوا تاريخ هذا الرجل وواصل أبو جهل تنفيذ سلطته على تلك البقعة . فكان الناس يقصدونه بالشكاوى طالبين النصيحة وكانوا أحيانا يلتجئون اليه لحل مشاكلهم العائلية .

لم يكن أبو جهل يمثل قط شخصية المسلم التقى حتى وإذا ذكر اسم الله على لسانه فذلك بحكم العادة التي نشأ عليها لا أكثر . كل القرية كانت تعرف

شغفه بشرب الخمر ومخالطة النساء . والكل كان على علم بعشيقاته . لم يكن عادلا مع أفراد عائلته لأنه كان يرغمهم على العمل في دكانه بدون مقابل ولا أجر إذن أبو جهل لا يمثل البطل المثالي ولكنه في نفس الوقت لا يحمل صورة البطل الشرير . فهو تجسيم لقوة تلك « الجذور » التي يبحث عنها العديد من أبطال الرواية التونسية ولا يجدها . هو تجسيم للطبقة البسيطة البعيدة عن المثالية والبورجوازية في آن واحد ، الطبقة البدائية التي عرفت كيف تحافظ على وجودها بالرغم من المستعمر (نلاحظ أن الكاتب يعيد أن أبا جهل كان يحب الفرنسيين والايطاليين وأنه لا يكن عداوة الى أي شعب) .

وليس من قبيل الصدفة أن نرى على غلاف هذه الطبعة التي اتخذناها مصدرا صورة كبيرة لشيخ يرتدي ثيابا تقليدية يحيط به النخيل وصور بني قومه الصغيرة . نكتشف من هذه الصورة أن أبا جهل يتميز بالقوة والهيمنة بالمقارنة مع من جاوره من أهل القرية . فالخيبة كانت تتبع أفراد عائلته بالرغم من نجاح مساعيهم . يغادر أحد أبنائه الوطن صحبة زوجته ويقصد فرنسا ، يتحصل على شغل في معمل ، وشقة ، وسيارة . وتتحصل زوجته على جراحة بعد انجاب طفل في فرنسا .

يرفض ابن أخيه العمل عنده في الدكان مقابل أجره سخيفة ويسافر هو أيضا الى فرنسا حيث يشرع في تجارة الملابس القديمة . وصار ينمي رأسماله شيئا فشيئا . ويبدو أنهم وجدوا سعادتهم في الغربة .

كان ابن أبي جهل يتنقل مع ابن عمه كل يوم أحد الى القرى المجاورة لبيعا بضاعتها هناك بأسعار منخفضة حتى جمعوا ثروة لا يستهان بها وبعدها يسافر ابن أخيه الى باريس حيث يتمادى في تعاطي التجارة .

لكن المصائب تتوالى على أفراد عائلة أبي جهل الواحدة تلوى الأخرى . ففي يوم من الأيام عثر على جثة الحلاق الذي كانت تتردد عليه كنة أبي جهل للزينة . يتهم زوجها بقتل الحلاق بعد أن برهنوا بأنها كانت عشيقته (وكلنا نعرف غيرة العربي الذي لا يتوقف أمام قتل غريمه) . يقع إيقاف الزوج الذي يصرف كل أمواله على المحامين الذين تمكنوا في النهاية من اخراجه من هذه الورطة . وبعدها يعزم ابن أبي جهل على الرجوع الى الوطن لبعث مشروع تجارى . لكن

طموحه وسعيه ذهباً هباءً في « لجة البيروقراطية » لم يعر أحد اهتماماً لمشروعه هذا فيضطر الى بيع سيارته وأدبائه وأدبائه زوجته وينتهي به الامر الى الايواء عند أبي جهل ليعيش في فقره وحسرتة .

كما لم يسعف الحظ الشاب الآخر ابن أخ أبي جهل فقد تفرقت قنبلة في الحي الذي يوجد فيه دكانه وبلغ أحدهم أنه رأى أشخاصاً لهم ملامح الارهابيين يخرجون من عنده ، فيقبض عليه ثم يفرج عنه لسبب انعدام الأدلة . وبعد ذلك يقع طرده من فرنسا .

أرض الميعاد لم تكن مضيافة كما كانوا يتصورون من قبل . وليس من السهل أن يجد كلهم مكانه الذي يستحقه في هذه البلاد . وفي تونس يصعب عليهم التحصيل على عمل وتجتمع العائلة كلها في بيت أبي جهل . فان كان الابطال والقاريء في أول الرواية يشعرون ببعض ومضات الأمل فانها في آخر الرواية تبيد وتشتت . هنا نشهد « مجرى الحياة » الذي رأيناه في رواية « دائرة الاختناق » لكن دون حماس وبدون تنميق لفظي بل بأسلوب بسيط وسرد متحفظ .

وبالرغم من بساطة موضوعها فلا يمكن أن ننتع هذه الرواية بالبساطة فهي مبنية على ترابط وتداعي الأفكار والأحداث وكذلك على المشاهد الموجهة الى الماضي « مجرى الحيلة » .

في الرواية ينعكس على مجرى الوعي (انظر ص 55 وص 59) . فترابط الافكار يقع عادة بواسطة التداعي الغير المنتظر أحيانا « الذي أتيقنه أن مريم مندفعة مثل نحو اللذة ، لا تقرأ للامر عاقبة ، ولا لردود الفعل حساباً علاقتها بجاك هي كعلاقتي بتيريزا . لم أبحث لها عن مقدمة ، ولا بحثت لها عن خاتمة أو قرار ...

قال اليزيدى للجماعة ، وهو يحدثهم عن تصرفات الانعام عندما تتحكم فيها الغرائز : « تهب الابل ليلا عند مطلع الشعري ، ترفع أعناقها عاليا لتتنسم الهواء ، وتتجه نحو مورد الماء لا يردعها رادع ، ولا يقف في وجهها أحد » (ص 58)

وهذا لا يعنى أن الكاتب يقارن تصرفات مريم « بشهوة الناقة » بل كان السرد يحمل مستويين اثنين : الاول في الحاضر وهو يجسد حياة الابطال في فرنسا والثاني في الماضي وهو يصور الذكريات حول تونس . ويلازم هذا الاسلوب

الرواية كلها مدخلا عليها معطيات اضافية والغازا متعددة ، مضييفا اليها آفاقا أكثر رحابة للتفسير والتأويل . فيجب على القارئ أن يقارن دائما هذين المستويين حتى يفهم الدوافع التي تؤثر على تصرفات الابطال ونفسياتهم .

كما نلاحظ ازدواجية فى شخصية أبى جهل والابطال الآخرين . فأبو جهل من ناحية رجل أمى متخلف يمثل بقايا الاستعمار ، فلاح غنى يستغل عمل غيره ويسيطر على كل القرية . ولكنه من ناحية أخرى يمثل كذلك الاصاله والجذور العميقة . فأبناء أبى جهل أكثر منه تطورا وتفتحا لكنهم يتصفون بالتفاهة وعدم المسؤولية ، تغفلت فيهم روح الهجرة وحب وطن الغير أكثر من الدهاس بالرغم من أنه كان يتعامل مع المستعمرين . وفى هذه ازدواجية يرى الروائي تناقضات المجتمع التونسي المعاصر .

بعد فحص وتحليل بعض الروايات التونسية (الأكثر خطورة وشهرة) نلاحظ أن رواية الثمانينات تتميز بأكثر تنوع وتعقد . والرواية التونسية المعاصرة تميل الى الواقعية . وتجسم الأعمال الروائية طرق الكتابة الواقعية : من الواقعية الجديدة المنتشرة فى السبعينات الى الواقعية الذاتية المتفشية فى الوقت الحاضر فى أعمال عدة كتاب .

ان الأعمال الروائية الأولى فى تونس كانت تتصف ببدائية فى الأسلوب والتركيب الكتابية حتى كانت تشبه القصة الشعبية أو النثر الاخلاقي والتربوي فى القرون الوسطى .

وسرعان ما نحا العمل الروائي التونسي منحى التطور والاكتمال فى الخمسينية الاخيرة واضعا أعمالا مختلفة تتميز بمستوى جيد وتقنية كتابية رفيعة .

ان تنوع المواضيع المطروحة فى الرواية التونسية فى الثمانينات وامتزاجه بالشكل الكتابي المعاصر والأسلوب الفني المتكامل يجعل الرواية التونسية فى مقدمة الانتاج الروائي العربى .

تأليف : ن - أوسمانوف

تعريب : سحنون سعيد

مشاهد احتفالية في شارع رئيسي

الاسماك مهترئة في عربة الشيخ صاحب الطرطور المثقوب من الأعلى •
تبتسم •

تبتسم الوجوه كلما ارتطم الرأس بمعلقة الاشهار •
الاشهار •

لذيذة رياح الحريف حينما تهب شرقا ، وتخترق أمعاء الليل •
تقطع •

تقطع العربة منتصف الطريق الى قصر البلدية حيث شيوخ العلية
مجتمعون ينتظرون مكالمات هاتفية لاصدار أمر بتحويل المقبرة الى سوق
مركزية • وتنتظر الوجوه في الشارع خطاب رئيس البلدية بفارغ الامل •
وحينما رن جرس الهاتف في المصباح ذعرت قائمة حذو الحائط •
الحائط •

نظت فاصطدمت باحدى عجلات شاحنة ، واتسخ المشى بالدم
وفتات اللحم •
المكالمات غلط •

أصدر المجلس البلدي أمرا عاجلا بتنظيف الشارع الرئيسي قبل أن
تهب ريح الصواب . وارتفعت الالحان في الابواق احتفالا بعيد مفاجي يخفي
الجثة • رقصت زوجة بائع السمك في الشارع الرئيسي • كشفت للرجال
المتعبين عن مفاتها الميته ، وانحنى لمعلقة الاشهار •
الاشهار •

انزعج أحد الشيوخ من علية السادة لما أبصرها من نافذة قاعة الاجتماع
تلطم خديها وترقص ..

خاف أن يفقد العيد مساحيقه وتنتصر المناحة فأصدر أمرا بترحيلها الى
زقاق مغلق يفضي عادة الى المقبرة ، ثم أطلق الاعوان الشماريخ فى وضح
الشمس الحريفية .

الشمس .

عاد صاحب الطرطور الى اسفلت الشارع يطأ الاسماك المتناثرة بقدميه
ويلعن زوجته وطفله الكسيح والبحر .

وتبعه الاطفال يلتهمون اسماك الحلوى الملوثة بالتراب ويلهجون باسمه ..
أوهموه بالحب والبطولة فكى ، وكاد يسكنه الجنون فيعلن التمرد ..

ولكن الاطفال فروا ..

الهيليكوپتر .

حلقت فوق رؤوسهم ، تركوا الشيخ وحيدا فى زحمة الوجوه .. سمعوا
أناته فى الابواق .. دسوا رؤوسهم فى ظلال القبور وناموا .

ناموا .

واصل بائع الاسماك طريقه بعد أن أطلقوا سراحه ، تيقنوا من أن رخصة
البيع لم يمض على انقضائها الا شهران وهى ممضاة وتاريخها القديم صواب
والاسماك المهترئة لم تسمم أحدا . فتحوا له باب القبو ، وأعادوه الى العربية .
انتظروا هلاكه بفارغ الحب . لم يهلك . لعن الاطفال - فى هذه المرة -
والصبايا ، ولهج لسانه بحب كاذب ..

حب كاذب فى حجم العربية .

لذيذة رياح الحريف حينما تكنس أوراق الكلبتوس فى الشارع الرئيسي
وتتلاعب برنين الهاتف فى الابواق الجريحة .

المكالمة غلط . أراد أحد الشبان أن يعاكس الموظفة العانس .

انتهت المكالمة ، وهاج الشارع بالتصفير والضحك .

• الضحك

يتربع كبير الشيوخ فى ردهة المبنى يعد الغداء • أسماك مهترئة وأعواد ثقاب مستعملة وقشور دلاع وقرع وقارورة خمر مهشمة العنق ، ولسان الشيخ كلسان الثور يلحس قطرات زيت ساحت على الجليز • • يتعالى الدخان ، والرجال هناك يحرقون ملفات ووجوها قديمة وتاريخا أغبر وضفائر امرأة مجهولة •

اجتمعوا مرة ثانية بعد الغداء • • اقترح أصغرهم أن تفتح مغازة فى الشارع الرئيسى لبيع الطيور المحنطة وصيدلية للمطالعة العمومية وملعبا رياضيا لمرقص الجماعى • • هاج الشارع فرحا ، ونقشت زوجة الشيخ فى آخر الزقاق شعرها ثم أطلقت عقيرتها بالغناء • • زغردت أفواه النساء فى الشرفات • • عاد صاحب الطرطور الى دكانه • • أخرج من خزانته أنواعا من السمك المتهرىء ملأ بها غربته ثم عاد الى المهرجان •

مرت ساعات ، والضجيج كالجرذ يقضم الشارع • رن جرس الهاتف • توقف الارسال فجأة • تجمدت الوجوه والحركات • ابتلعها بياض الورقة إلا العربة •

مصطفى الكيلاني

المطر الأحمر

فاصل : للذهب بريق لا يجذب اليه سوى الملوك والنساء والصوص .

نقطة : إن المريض الذي يرفض الدواء لمرارته مريض ينتظر معجزة ليشفى .

* العمدة مات . مات العمدة يا أهل القرية . مالكم تنظرون إنني هكذا ؟ ألا تصدقون ؟ من الصعب أن يصدق الانسان خبرا كهذا . ولكنها الحقيقة . لو قلت لكم : إن أحدا آخر غير العمدة مات ، أتصدقونني ؟ لماذا ؟ ألا يموت العمدة ؟ ألم يمت قبله كل العمدة الذين انتهت بهم رحلة العمر ؟ أم أن هناك أناسا لا تطولهم حتى يد الموت الطويلة ؟ أعرف لماذا لا تصدقون . أصبحتم لا تؤمنون بالحقائق . وأيضا لا تريدون أن تقتحموا فرحا قد يكون كاذبا . وأنت ، أبي ، لماذا تبدو صامتا ؟ أفزعك الموت وأنت شيخ تطل عليه كل يوم أم أنك الآخر لا تصدق ؟ ربما تبكيه في صمت . ألم يكن العمدة أحد أعدائك ؟ أتذكر يوم ذهبته اليه تشكوه أخاك فقال لك : دعك من ظلم الناس يا رجل ؟ ألم يهددك بالسجن أكثر من مرة ؟ ربما تذكر كل هذا وأكثر .

- نعم ، بني . وليس موته ما يشغلني . إنني أخشى أن يكون العمدة الجديد أشد علينا منه وأقسى . لقد صبرنا عليه في الماضي وتحملنا شره لاننا كنا ندرك جيدا أنه كغيره سوف ينتهي يوما . كم نحن في حاجة الى الصبر يا بني . - ولكنكم كما تعودتم عليه سوف تعودون على غيره . لا يعدو الامر أن يكون أكثر من مجرد عادة .

- ليس الامر كما يبدو لك . أنت تنظر الى الحياة من زاوية عشرين سنة فقط . سلنا نحن عن أيام الشدة . لقد ركعونا . السلط الاستعمارية لم تجد

(*) متحصلة على الجائزة الاولى في ملتقى الابداع الاول للادباء الشباب بقصيدة المديوني من II الى 13 جويلية 1988 .

من هو أفضل منه ليدوس على رقابنا • ونحن نقابل تعديه بالصمت • لقد كان العمدة بطلا لانه يستطيع أن يزج بمن يشاء فى السجن أنت لم تعرف الجوع • لم تمش يوما حافيا • لم تعر •

بدا لي أبي حكيما كما لم يكن من قبل • لا أدري إن كان فكر فى هذا قبل اليوم أم أن الموقف أملى عليه الحكمة فارتجلها •

– ولكن هذا الكلام يستطيع أن يقوله أى إنسان •

كيف تبرر موقفكم منه بهذا ؟

– انظر الى الحديقة • أرأيت تلك الشجرة الصغيرة ؟ انظر كيف تنثني أمام الريح • نحن أيضا كنا اشجارا صغيرة من لحم ودم • كم عبثت بنا المشارط ! كانت لنا قطارات من العذاب ومحطات من التعب والضجيج • كان الربيع فى أرجائنا خريفا • وصمت أبي • ثم رفع الفرح رأسه • كان الحجل يكسو وجهه المتغضن • كان الماضى يسكنه ، والحاضر يملأ كفيه • مد يده الى جبينه • فارتعشت يده قليلا • كان يريد أن يقول نشيدا • فتكسر الكلام على شفثيه فسقط فى الصمت من جديد •

الريح تعبت بالحديقة • سحباب بعيد يعبر الافق فى عجل • فجأة حطم أبي الصمت بكلام متعب :

– أنا قد هرمت ولم يبق فى سنواتي متسع يمكن أن أعمل فيه أى شئ • لقد حان دورك أنت لتعيد الحياة الى هذه الحديقة العجوز الطيبة • هناك قرب الحائط حيث الدفء ارزع الزهور • وأحب زهورك • لا تدع الاشواك تخنقها •

شاع نبأ وفاة العمدة • التف الناس حلقات فى كل مكان ، يتحدثون • ولكن ماذا كانوا يقولون ؟ لو كان العمدة حيا • • • وساروا فى شوارع المدينة يتبادلون التحايا على غير عادتهم •

كان العملة يصيح فى جموع الفقراء ويشتمهم ويبصق فى وجوههم عندما يتزاحمون بالمناكب والايدى السمراء المعروقة والوجوه الضامرة من أجل كيس من الحنطة وغطاء صوفي تمنحهما الحكومة اليهم عندما تشتد السنوات ويعم الجفاف والقحط •

وكانت الايام صعبة والايام مرة وطويلة ، فشح الضرع وغارت مياه الآبار والعيون ونضبت الانهار . لم يبق فيها سوى الحجارة والحزن . تكسرت البسمات الهزيلة على الشفاء المتشقة . الحديث بين الناس يدور مختصرا . كلمات مقتضبة تنتهى بمجرد أن تعبر الشفاء . وتبدو العيون غائرة مخيفة والوجوه أقنعة تحترق .

وأنت الآن يا عمدة ممدد مغطى تبكيك النساء والشيوخ أولئك الذين كنت تصفعهم بالحزن وتبصق فى وجوههم . هل تصورت أنك سترحل يوما دون اختيار أو ارادة ؟ أنستك العمادة وزحمة الايام كل شيء . أذكر يوم طلبت اليك أن تسجل اسمي بقائمة عمال الحظائر . طردتني يومها . هددتني بالسجن وعلا صوتك :

– « أنت ولد لا تصلح لشيء . الموت أفضل لك » .

كنت أيام الاستعمار فى الليل أنت نائر مع الثوار تدمهم بالاكل واللباس وفى النهار أنت خائن تتعامل مع السلط . لقد قلت مرة : إن على الانسان أن يتعلم كيف يصيد عصقورين بحجر .

الشوارع تمتد ضعيفة متأكلة تلطمها فى عنف أقدام الفلاحين . وجوه شاحبة متربة .

لا حديث عن سوى العمدة . نمضغ حسرة جافة عن الاعوام التى قضيناها فى الضياع ننتظر اندلاع الفجر . ماذا نفعل فى هذه الحياة لو كانت الاعمار تباع ؟ ربما تتساوى فى الموت فقط .

ابن العمدة سوف يصبح يوما بطلا كما كان أبوه . يصبح سيذا . السيادة تكون بالوراثة . وكذلك السعادة . أما أنا فسأبقى فقيرا لأننى ابن فقير . وسوف أتزوج قروية وأنجب فقراء . الفقر ميراث كالغنى تماما .

صعدت كرسيا وتصورت أني خطيب فى حشد من الناس . أيها المواطنون . أيتها المواطنات . ماذا أقول لهم ؟ أنا لم أعود على الخطابة . أسعل حتى يخف ارتباكي وأنتقي أثناء ذلك بعض الكلمات الكبيرة جدا . أيها المواطنون . اليوم

مات عميد زعماء الامبريالية • شعرت بفرح فانا أستطيع أن أقول كلمات لا يتوصل اليها حتى الساسة أنفسهم •

وعند الظهيرة تماما عندما كانت الريح تنفخ في التراب حلق الناس في رجل يرتدي جبة بيضاء ويصعد الهضبة الكبيرة في طريقه الى المسجد • وتحرك جسده الممتلئ في وقار مفتعل • ورغم أنه كان يدير وجهه باتجاه المسجد فكل شيء فيه كان يدل على أن هذا الشخص لا يمكن إلا أن يكون العمدة •

نظر الناس الى بعضهم • فارتطمت الانظار بالانظار والحيرة بالشك والفرح بالخوف وتكسر بعضها على بعض •

ما الذي يحدث فوق هذه الارض الغريبة • العمدة الميت يعاود الحياة ؟ إذن كان نبأ وفاته إشاعة ؟ ولكن العمدة مات • لا • العمدة مات • إن ما تروونه هو خياله ، ظله ، شبح يريد أن يخدعنا • ونحن نعرف حقيقة من مات لا يمكن له أبدا أن يعود الى الحياة ثانية •

مالكم ؟ ماذا تريدون مني ؟ هل ... ماذا تقولون ؟ أنا ؟ أنا لم أمت • أنتم ترونني بأعينكم • هل ... <http://Archivebeta.Sakait.com>

كنتم تنتظرون أن أموت إذن • أصواتكم تعلو على صوتي • ما هذه الوقاحة • اسمعوا • لا تريدون أن تسمعوا •

سوف أزج بكم جميعا في السجن حتى لو اضطررنا الى بناء سجون أخرى •

لن تجد الوقت لذلك • كان ذلك ممكنا فيما مضى • اليوم الامر يختلف كثيرا • كل شيء قد تغير • حتى أنت لم تعد أنت • ولا نحن نحن • ضقنا بك وضائق بك الارض •

تريدون أن أرحل الى مكان آخر إذن ؟

كان ذلك ممكنا في ما مضى • اليوم رحيلك في الارض مستحيل •
العمدة مات • العمدة مات • وصمتوا •

تكلّموا • ماذا تريدون ؟ تكلّموا •

ولم يتكلّم أحد •

العمدة ينظر فى كل الوجوه التى تحاصره وجها لوجه •

العمدة يلهث • ضاق تنفسه •

تكلّموا ...

لم يتكلّم أحد •

وامتدت الايدى • تقاربت • تباعدت • ارتفعت • نزلت • تصادمت •

لحظات من الانعتاق من كل الاعراف والقوانين • من النفس • من العقل •
من ...

دم • كتلة مشوهة من اللحم البشري • كانت الغيوم أثناء ذلك قد جاءت من
بعيد وتجمعت • بدأ المطر يهطل كما لم يحدث منذ أكثر من عشرين سنة •
امتدت الايدى تجمع الحبات وهى تتأبى وتقلت منها من بين الاصابع • تبللت
رؤوسهم • تبللت ثيابهم • ولكنهم ظلوا واقفين حتى سبال ماء المطر على
وجوههم وتقاطر من شعورهم • عيدان فى يوم واحد •

واندفعت السيول من حول اقدمهم وقد علتها حمرة قانية • ولم ينزل من
قبل عليهم مطر أحمر كهذا •

محمد الأمين السعداوي

- أكتوبر 1985 -

الباب الآخر

استبد بها هاجس الخروج الى الدنيا ذات يوم شتائي بارد . البيت الفقير الذي كان يأويها ما عاد يتسع لأحلامها . جدرانها المهترئة أصبحت سجنا يضيق يوما بعد يوم ، والغرفة التي تنام فيها الى جانب أخواتها الاربع وأخوتها الثلاثة جبل يلف حول عنقها الطويل الابيض الذي يمتد ليفك الحصار المضروب عليها ويرحل في أرض الله الواسعة ... نداء الحياة يصرخ في أعماقها ويزين لها الاحلام بألوان قزحية .

صدرها الذي تنهشه آلام التمني يتمزق قطرة قطرة والنار بداخله تأتي على زهرات القناعة وتنبت أعشاب الرفض وسط حقل من رماد ، يسقيها الحلم فتخضر وتنمو ... في ذلك اليوم الشتائي البارد كان النداء في أعماقها عاليا لتغادر بيت أبويها الذي لم تعد تطيقه ... سنوات طويلة قضتها في هذا البيت الحقيق الذي يمتلئ هوائه برائحة البول والرطوبة . وأحيانا يخيل اليها وهي بجانب أخواتها في الفراش أنها تنام في مرحاض فتلعن حالها وتنحدر دموعها على أنامل الليل فتأتيها أنفاسه مترعة برؤى عذبة .

الى متى ستظل فقيرة لا ترى من الدنيا سوى وجهها البائس ؟ لقد تآقت نفسها الى التحرر من أغلال الحرمان وسجن الجدران الرطبة القنرة .

شبابها الذي يتفتح كزهرة المزابل يشتاقي الى كسر الحواجز ليخلق في فضاء آخر يتنفس هواء صافيا بعيدا عن البول والرطوبة . سئمت النوم مع أخواتها وكرهت بولهن الذي يبللها كل ليلة . ما عادت تفكر الا بالفرار .

ستفر من أجل الحياة ومن أجل شبابها الذى سوف يذوى قبل أن يرى الشمس .

في ذلك اليوم الشتائي البارد ، استبد بها هاجس الخروج الى الدنيا .
شيء كالحنين ألح عليها لتنتقل فى أرض الله ، نداء بعيد يرتفع فى أعماقها
أن تودع بيت الأبوين .

غافلت أمها واستجابت للنداء . كان البرد شديدا وهى فى الطريق الى المحطة .

المعطف القديم والرياح ووجهها الابيض الكثيب وقدمائها الخائفتان والحيرة
التي فى أعماقها وصور تضطرم فى فكرها والارض الكالحة التي تنسف
الرياح أثربتها والظلال الباردة الممتدة هنا وهناك مسافة للحزن ورحلة فى
أغوار الوحشة وسقوط فى مخالب الضياع . لم تكن تدرى ماذا ستفعل فى
المحطة والى أين ستنتهى الرحلة وأى بيت سيأويها فى أيامها القادمة .
البرد يداعب جسمها بأصابع من جليد والرياح تلهو بالمعطف البالى وبشعرها
الأسود ، وهى تمشي ، فى عينيها خوف ، وفي خطواتها شيء من التردد ، وفى
الأعماق شيء يتمزق ، وأشياء تحترق ، وفى الذهبن صور تنمو وأخرى
تسقط ، وضباب تريد أن تزيحه ، فينتشر ليغمر كل الآفاق .

الصور الغائمة نعم يرتفع فى أعماقها فتستسلم له بكل حواسها وتريد أن
تمسكه فى يديها وتسكنه صدرها .

لن تندم على شيء مهما حدث لأنها لم تفرط فى شيء يستحق الندم .

طعم الفقر أنساها مشاعر كثيرة ولون الحرمان جعلها تمقت البيت وجدرانها
القدرة ورائحة الفراش الذى لا يجف من البول توقف النهر الذى كان يجرى
بينها وبين أهلها عن المسير . جفت مياهه وتشققت أرضه وحلت بصدرها
النقمة والكران . رائحة الطريق التي تلهو فيه الرياح ويعشش فيه البرد
القاطع ، أنقى من رائحة البيت والآفاق أمامها الآن أوسع مما كانت عليه .
كانت تلتفت وراءها من حين لآخر خشية أن يلحق بها أحد من البيت . وقبل
أن تصل الى المحطة توقفت وراءها سيارة انتبهت فاذا هي تسير فى وسط

الطريق . عادت الى يمينها مرتجفة مذعورة والتفتت الى السائق كأنما تريد أن تعتذر . أحس بشيء ينتفض في أعماقه ، وهو يشاهد وجهها الذي احمر خجلا ، وارتبك لحظة ثم خاطبها : «يمكننى أن آخذك الى المكان الذى تريدن» .

ازداد خداهما حمرة ولم تدر بماذا تجيبه . شيء في داخلها يدعوها الى القبول ، وتلاشت ألوان الكآبة من عينيها دفعة واحدة وعلى وجهها ترتسم مساحات الفرح .

التفتت اليه مرة أخرى ولم تتحرك السيارة بعد . ورسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة فجرت في أعماقه نبعا من الشهوة الجارفة . حرك السيارة ليدنو منها وفتح الباب ودعاها أن تصعد بجانبه ، اندلعت في أعماقها عاصفة وسقط العالم في الماء وتلاشت صور الماضي والحاضر ولم يبق في الدنيا سوى اثنين وقلبها الذى ينتفض وهدير لا تعرف مصدره وألوان متحولة تتردد بين الا شراقة والقتامة .

غامت عيناها ورأت وجه الرجل يسبح في سحب دكناء سرعان ما انقشعت وظهر لها مبتسما يدعوها الى الحياة ، ويفتح لها طريقا الى الدنيا التى قد تكون حلمت بها وهى فى بيت أبويها . وعندما كانت تضع ساقها الاولى في السيارة سمعت أمها تنادىها فسحبتهما بسرعة وتابعت السير .

واختفت السيارة بسرعة وراء الجدران الكثيرة .

جرت الأم وراءها .

- يا ابنتي ماذا فعلنا لك ؟
- مللت الحياة بين الجدران القنرة .
- وماذا تريدن ؟
- أريد حياة أخرى .
- أي نوع من الحياة تريدن ؟
- حياة بألوان أخرى .
- والعار . وألسنة الآخرين ... ؟

- لن أرى وجوههم بعد اليوم .
- وأين ستختفين ؟
- بل سأظهر للوجود .
- أين ذهب عقلك ؟
- بل قولى أين كان مختبئاً لاقبل حياة البؤس والحرمان ، والجدران الموبوءة ورائحة البول .
- لقد كنت كريمة بين أهلك .
- بل كنت مغفلة ، كبلني جهلي ، والأوامر التى أتلقاها منكم جميعا .
- كنت راضية وقانعة بحياتك بيننا .
- بل كانت مساحة الحريق فى أعماقى تتسع يوماً بعد يوم .
- أبوك لو سمع ...
- أبى أخذني من مقاعد الدراسة مبكراً وحرمني نعمة التعلم . دعي أبى الى شغله وأشياءه التى يشير بها فأنا لم أعد أراه الا كالغريب يدخل البيت لياكل وينام وقلبه موحد ووجه قاتم هجرته الفرحة .
- أبى ، هذا الذى تتحدثين عنه هو الذى زرع بذرة المأساة فينا عندما تركنا نجوع ونتعري وراح ينفق أمواله في الأشياء التى يشربها .
- عودى الى بيتك فلا داعى للكلام الآن ...
- وضاعت بين الوجوه الكثيرة تاركة أمها وراءها تتخبط فوق الرصيف قريباً من المحطة .
- مشيت لا تدرى الى أين المسير وأى الطرقات ستبتلعها وماذا سيكون مصيرها .
- قلبها غمية دكناء ، ومساحات الحزن تنتشر وتغمر كيائها ولكن نداءات تنبعث من الأعماق تمنعها من العودة وتدعوها الى التماهى فى موقفها الراضى التأثير على الموجود من أجل وجود آخر .
- كانت السيارة تنتظرها فى المنعطف ...

وعندما أفاقت من الغيبوبة التي حلقت بها في عالم غير عالمها الأول وفتحت
لنفسها أبوابا كانت موصدة وجدت نفسها إنسانا آخر ، وأحسّت أن أشياء
جميلة ضاعت منها ولا يمكن ترميم ما كسر ، لطمت وجهها عندما شاهده في
المرآة التي بجانبها في بيت الرجل وأرادت أن تبكي لكن البكاء لم يحضر .

لم يبق مجال للتراجع والطريق أمامها بدأت تتضح . لن تخسر شيئا بعد
الآن .

سافرت في أرض الله ودخلت بيوتا كثيرة وفي كل بيت تزداد إحساسا
بالضياع .

نمت في نفسها وحشة قاتمة وتلاشت كل الصور الجميلة التي كانت تتراءى
لها عندما كانت مع أهلها . وتبددت الأحلام وانقطعت النداءات وخبث كل
الألوان في عينيها .

حاولت أن تنسى ذلك الكابوس الذي ظل يعذبها لكن لون السائل الأحمر
الذي لطح الفراش في أول يوم غادرت فيه بيت أبويها لم يغادر فكرها .

لم تنفع السجائر ولا الأشياء التي أدمنت على شربها مع مرضاها .
لون المرارة في كل مكان والدم المراق حريق في الصدر وأين المفر مما هي
فيه تلك طريقها التي رسمتها بنفسها ولا بد أن تسير فيها الى النهاية .

... وفي يوم شتائي بارد ، استبد بها هاجس العودة الى أهلها .

منور النصري

الالعاب النارية

ملاحظات مدخلة حول تجربة «صالح الدمس» القصصية (1)

نماذج :

قصة أولى : «الصبية الحمامة» :

تلك الصبية الملتحفة حناحي حمامة تأتي عشية الآحاد تطلب خطيبها بالهاتف .. وأنا من خلف المصرف ينوح في صدرى الحمام ، وأمرر لها الرقم... تلك الصبية ذات العينين السوداوين تمر اذ يرن الهاتف من المصرف الى الغرفة ... بيضاء كغيمة صيف ... فيلفحنى الهبوب وتذهب الكلمة . ويكلمها ليصنعا عشا جميلا .. عاليا .. شاهقا .. فوق عمود الهاتف .. بالهاتف .. تلك الصبية تأتي عشية الآحاد ، تجدننى فى المكتب وحيدا .. فتنتصب أمامى ملتحفة بياضها بقدها المشوق ورقبتها اللامختومة .. فتختلط فى يدي خواتم البريد .. تأتي تطلب بالهاتف ذلك الفارس البعيد ... تؤسس معه عشا لغد الفرحة .. تلك الصبية البيضاء ... تلد الآن فى المصححة طفلنا الثانى !..

(صالح الدمس - الايام : 21 أبريل 1988 ، ص. 12)

قصة ثانية : «يوم جميل» :

كان جميلا ذلك اليوم ... الشمس كصحن من فضة .. دافئة .. لذيدة .. وكنت صغيرا ألع مع أترابى فى زنقتنا الضيقة .. كان الفرح يكسو الحيطان

ضحكا أبيض .. والنسوة على عتبات المنازل يتحدثن ويقهقهن .. وكن جميلات ..
الورد على الخدود .. والخمر على النهود .. وكان اليوم جميلا .. كان ذلك اليوم
الذى مات فيه جارنا !..

(صالح الدمس - الايام : 8 أكتوبر 1987 ، ص . 12)

قصة ثالثة : «حلاوة» :

الرجل الغنى صاحب الهنشير الذى يشتغل فيه والدى يأتى صباح
الآحاد .. يقدم على سيارة طويلة .. عريضة .. بيضاء تتهاذى كقيمة صيف ،
نراها من بعيد فيسرع أبى الى الطريق لاستقباله ... والرجل الغنى صاحب
الهنشير جميل وبدين وتكسوه ملابس .. ملابس !.. لعلكم فهمتموني ...
يأتى صباحا ، يدخل غليوننا مزركشا .. وبطنه كامرأة فى السابع . حين يدخل
الهنشير . يجمع له والدى الكثير ، الكثير من الغلال والخضر ثم يسلمه كثيرا
من النقود ، أوراقا مختلفة ، فيدسها فى جيب سرواله . وحين يقدم له والدى
فنجان القهوة ، كان ينبهه ألا يضع فيها السكر .. يشربها مرة .. ترى ؟ ألا
يعرف أن القهوة بالسكر أفضل ؟ فوالله تكون أحلى !..

(صالح الدمس - الايام : 12 نوفمبر 1987 ، ص . 10)

عتبات :

- عتبة أولى : «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة» (النفرى)

- عتبة ثانية : «ان الصمت الابدى لهذه الآماد اللانهائية يرعبنى» (باسكال)

- عتبة ثالثة : «ولكن الناس لا يطلقون الرصاص على أنفسهم أو يشنفونها ،
ولا يعترفون بحبهم ولا يتحدثون عن أشياء ذكية ... انهم يأكلون ويشربون
ويتداعبون ويتكلمون أشياء سخيفة ، وفى هذا الوقت تنبشق سعادتهم أو
تتهشم حياتهم ...» (تشيخوف)

شىء على سبيل المقدمة :

أنت الآن أمام كتابة لم تأنسها ... جديدة ، أو قد تجدها كذلك ... طريقة
بعض الشىء . مصرّة ، تطمح أن تكون . قد تلتقطها فى اللحظة فتجد منك

صدى ، وقد ينشأ منها فى نفسك ، فقط ، ما ينشأ من الالعب النارية :
ابراقات سريعة تأتلق للحظة ثم تتدحرج منطفئة ...

وأنت أمام كاتب - أو أمامك كاتب - بصدد تكوين نفسه بنفسه ، مصر
بالرغم من لامبالاته ، يهوى الفضائح الصغيرة الجميلة . مغمور بعض الشئ...
ويعتبر «النقاد كذباب الخيل يعوقها عن حرث الارض ...» أو ما شابه ذلك...

وإذا كنت تبحث ، فى هذا النمط من القص ، عن بعض الالفة أو الاريحية
فلمست مدركها ، فهى عنيفة بشكل متميز . نصيبك منها انفعالك ونصيبها منك
انفعالك ولا أثر لها عليك الا بك ...

ولانها هزرتنى فأنا أرتادها معتمدا ، فقط ، على احساسى الداخلى ومتوقفا
عند بعض المحطات فيها لا غير ...



عن مناطق الظل وأشياء أخرى :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

ارتبطت القصة القصيرة فى أغلب الاحيان بفكرة تنظر للانسان بوصفه
كائنا متفردا هائما على هامش المجتمع البورجوازي تنمو كفطريات الرفوف على
الخشب الميت أو كالسمار البرى على حواف السواقي والمجارى المتعفنة الآسنة.

ولذلك لم يكن للقصص القصيرة ، على الاقل التقليدية منها ، بطل أو أبطال
بالمفهوم الذى نجده فى الرواية ، وانما بدلا من ذلك شخصيات عادية بسيطة
بمشاغل عادية يومية بسيطة وهموم خالية من طموح العظمة والاهداف
السامية .

وقد ظهرت هذه الشخصيات فى شكل مجموعات من الناس المغمورين :
الموظفون العموميون عند **جوجل** ، الخدم عند **تورجينييف** ، المومسات عند
موباسان ، الاطباء والمدرسون والمحامون عند **تشيخوف** ، الريفيون عند
أندرسون ... وغيرها ...

وان كانت مجموعة صالح الدمس غير متجانسة بما فيه الكفاية اذ تضم الاطفال والارامل والعواقر والمطلقات والمومسات والمتفردين والغرباء وموظفى الدولة الصغار ... فانها لا تشد كثيرا عن القاعدة .

اننا نصير الى ما نتغنى به :

ان البناء الحكائى فى قصص صالح الدمس يختلف من قصة الى أخرى غير أنه بإمكانك أن تحس بوجود خيط ينتظمها كلالىء العقد الواحد .

ولعل مرد هذا الانطباع هو أنها من ناحية ، تشترك جميعها فى تصوير حياة نماذج انسانية من شرائح اجتماعية تنتمى فى أغلبها الى الطبقة الاجتماعية الأشد فقرا ، وتعتمد من ناحية ثانية ، تكتيكا فى القص يكاد يكون واحدا وأقصد هنا تكتيك المفارقة أو على الأقل المفاجأة وإظهاره عادة من خلال مواقف تأتى فى شكل ابراقات سريعة ومفاجئة ...

بدأ صالح الدمس يتعاطى هذا النمط من الكتابة منذ خمس سنوات تقريبا ، وكان ينشر ، من حين الى آخر ، على صفحات جرائد اسبوعية ودوريات أخرى ولكنه وخلال السنتين الأخيرتين أصبح ينشر بشكل مكثف واتضح ، أكثر فأكثر ، اصراره على هذا النمط من القص .

وهو وان حافظ ، طيلة هذه المدة ، على نفس البناء فى الكتابة ، وأقصد استعماله أساسا لتكتيك المفارقة الذى لا يكاد يخلو منه عمل من الاعمال ، فانه أصبح يستعمل هذا التكتيك بشىء من اليسر ، وأحسه صار يتهيا له بسهولة أكبر فى كل موقف يتناوله ، ولكنه وفى المقابل ، لم يسجل على مستوى الصياغة البلاغية كانت أو اللغوية ، أى تطور ملموس .

والاكيد أن صالح الدمس لا يبذل المجهود الكافى فى سبيل ذلك وأجدنى مدفوعا للقول بأنه وقع فى الفخ الذى نصبه بنفسه اذ أصابته عدوى مجموعته التى صنعها بيديه :

أصيب بعدوى الصمت والسكوت فى محيط يتميز بالفقر والمعاناة والتفرد الانسانى وانعدام الآفاق المضيئة ويتطلب العمل والصراخ والدق ، بالاقول ،

على «جدران الخزان» ... كما أنه ، وهو الساخر أحيانا كثيرة فيما يكتبه ، قد انتهى الى السخرية حتى من نفسه فصار لا يأخذها مأخذ الجد ولا يولى ما يكتبه العناية الكافية ... أى كأنه «صار الى ما يتغنى به» كما يقول الشاعر أرنولد !

ذلك أن الصياغة الرفيعة للمعانى وقوة الإيحاء ورسم الصورة بواسطة كلمات مختارة ومنتقاة ودقيقة من ناحية ، وقوة السبك والتعبير وهيكلية بناء النص والاعتناء بالمتانة اللغوية للجملة من ناحية أخرى هى الضامن الوحيد لنجاح القصة وهذا النمط من القص بالذات .

تحتوى قصة «امرأة تبكى» (2) ، أطول قصة قصيرة من بين المجموعة التى بين أيدينا ، على مائة وثمانين كلمة ، أما «يوم جميل» وهى أقصر قصص المجموعة فتحوى على احدى وخمسين كلمة فقط ! فيكون المعدل ، حينئذ ، يتراوح بين الستين والسبعين كلمة للقصة الواحدة .

ستون أو سبعون كلمة هى سلاح صالِح الدمس ، سلاحه الوحيد ،

وصالِح الدمس لا يقيم علاقة حميمة مع بندقية ، لا يتعهد لها ولا يعتنى بها كثيرا !

ان هذا النمط من الكتابة فقير بالاحداث والتحويلات الكمية والاضاع والمواقف ويخلو من التطورات والتبدلات المتعلقة بالشخصيات القصصية ، يعنى أنه لا يعتمد درامية الحدث المتمثل فى عناصر الحركة والتوتر والفعل والذي تقوم عليه القصة القصيرة الكلاسيكية أو على الاقل العادية .

ولذلك فان قوة القصة تكمن فى الجمع بين تفاصيلها القليلة التى لا تحتوى، منفردة ، على أية أهمية ذاتية ولكنها تعطى المعنى العميق للقصة فقط عند التوليف بينها . وهذا لا يتوفر الا بصياغة بلاغية ولغوية جيدة ...

وقصص صالِح الدمس ، وان كانت لا تعتمد درامية الحدث بالشكل المألوف وبمناصره المألوفة (الحركة ، التوتر والفعل) الا أنها تحتوى على هذا العنصر الدرامى وتحتوى على وحدة الانطباع ، أى وحدة ما توحى به ، وأقصد الاثر

الكلى الذى ، هنا ، لا يتشكل كثيرا فى تفاصيل السرد ، بل يتكون بشكل حاسم وكمحصلة نهائية بعد الفراغ من القراءة .

ان الشريط اللغوى فى قصص صالح الدمس يتميز بالقصر الشديد .

ولتقييم قصة ما لا يجب أن نأخذ مسألة القصر وحدها ومنعزلة وانما فى تناسبها أو عدم تناسبها مع موضوع القص . وسنرى أنه عندما يناسب بين الشريط اللغوى وموضوع القص فانه يبدع وأذكر مثالا لذلك قصص «عيد» (3) ، «الصبية الحمامة» ، «يوم جميل» ، «حلاوة» ... وعندما يكون التناسب ضعيفا فان موضوع القص ، رغم تهينته لاحتواء الكثير من الطرافة وعنصر المفارقة ، يكون باهتا وباردا وتفسير ذلك الصياغة اللغوية والبلاغية غير المحكمة والمرجلة والتي لا تسمح للنص بالايحاء بما هو أوسع منه ...

و«يوم جميل» هى فى اعتقادى نموذج للقصة الناجحة . وهذا لا يعنى أنها الأكثر حبكة على الإطلاق ، ولكننى اخترتها لأنها من ناحية تحتوى على قدر كبير من الحبكة الفنية ، ومن ناحية ثانية لأنها الأقصر وذلك للتدليل على أن الشريط اللغوى القصير جدا لا يؤثر سلبا على وحدة الانطباع فى القصة أو يجعل منها ، بالضرورة ، شكلا أدبيا ما قبل - القصصى كما يظن البعض ...

ان هذه القصة ، على قصرها ، تحتوى على قاص (الراوى / الانا) وعلى موضوع قص (حدث الموت) وعلى سامع / قارئ (تستدعيه ، ضمنيا ، باعتبار الطابع التخاطبى للكلام / القصى) ، يعنى أنها تحتوى تقريبا على كل مقومات القص .

ولكن كيفية بناء هذه العناصر وهيكلتها هى التى حددت هذا القالب الذى بين أيدينا .

وأجدنى مدفوعا لاستباق الاشياء وللتصريح بأن صالح الدمس ، هنا ، يوكل للقارئ / السامع ، كعنصر من عناصر القص ، الدور الرئيسى والحاسم عند صمت النص ، كما يولى لحضوره الاكيد والملح والمباشر أهمية تكاد تكون حتمية .

الا ان قابلية الشريط اللغوى للامتداد والطول تهدد الى حد ما موضوع القص وبالتالي معناه الكلى . فامتداد الشريط اللغوى يعنى زيادة فى التفاصيل قد تتناول تفاصيل ثانوية للحدث أو الموقف الذى هو مادة القص أو تتناول أحداثا أخرى لا علاقة لها ولا وظيفة لها فى بناء القصة ... وفى الحالتين يحدث اللاتناسب فلا تقوم مخيلة القارئ بوظيفتها على الوجه المطلوب ولا يحصل ، تبعا لذلك ، المعنى الكلى ...

ان مكونات النص فى بعض قصص صالح الدمس (يمكن أن نذكر قصة «تشاتم» (4) على سبيل المثال) قادرة على البوح بمعنى كلى طريف ؛ لكننا نلاحظ أن الكاتب قدم ، فى مواطن عديدة ، معلومات وحوافز كثيفة وأفرط فى تمطيط شريطه اللغوى : فالمونولوج المقدم فى «تشاتم» مثلا لا لزوم له فى رأى ، كما أن الإشارة الى «دواسة السرعة» وما تبع ذلك من تفاصيل أخرى هى معلومات ثانوية وليست ضرورية لمادة القص ، ثم أن كثرة العبارات والتراكيب غير السليمة كلها تساهم فى تشتيت خيال القارئ وانتباهه فلا يستطيع الدماغ التقاط النص قاطبة وفى اللحظة ولا يساعد ذلك على احداث الشعور بالمفارقة أو على الاقل بالمفاجأة المرجوة فيغدو النص باهتا لا حرارة فيه .

ARCHIVE
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قراءات :

I) حول قصة «حلاوة»

ماذا تعنى قطعة السكر ، هذا الاهتمام الجزئى الصغير ، التفصيل الحياتى الصغير الذى لا قيمة له ؟!

ماذا تعنى قطعة السكر فى بناء حكاى «يسهب» فى وصف مظهر استئراء أو بالاحرى علاقة استغلال كهذه ؟!

ان الوصف «المسهب» لعلاقة الاستغلال هذه يهىء - حسب منطق ما - لما هو أعظم ، ولحظة التوتر المنتظرة حسب «الكرم» السردى هذا لا بد أن تكون أكثر حدة ... لكن الكاتب هنا رأى شيئا آخر : تعلق بحدث ثانوى وراهن عليه !

بدا الاستغلال حينئذ وكأنه شىء عادى لم يعد يدهش ، وأصبحت قطعة السكر ، ذلك الحدث الثانوى فى البناء الحكائى ، هى التى تدهش !

ان صاحب الهنشير هنا والآخرين من خلاله يحسبون أمورهم بدقة ويحرصون على ترك انطباع معين لدى الآخرين ويتواءمون بذلك مع ما يتركون من انطباع ويعملون على أن يبدو متواضعين ، ويلزمهم مؤشرات تميزهم عن غيرهم ومحسوبة هي الاخرى بكل دقة : فحسب هذا المظهر الذى يبدو عليه صاحب الهنشير ألا يثير شرب القهوة دون سكر وهو سلوك مرضى (بفتح الراء) معروف ، نوعا من الشفقة تجاه صاحب الهنشير ؟! ألا يلطف ذلك من حدة العلاقة القائمة على الاستغلال ؟! ألا يلطف ذلك من الاستغلال ولو قليلا باثارة بعض الشفقة عند الوالد ؟!

وهذا التفصيل البسيط يكمل ، فى الحقيقة ، تفصيلا آخر : عندما يتسلم صاحب الهنشير رزمة الاوراق النقدية يدسها دون مراجعة أو تدقيق وبشيء من اللامبالاة ويشرب كذلك القهوة التى يحضرها الوالد ! نوع من التطير المصطنع والتظاهر بالثقة والشعبوية المقيتة ... وكلها مؤشرات يصطنعها ويحرص على ابقائها لكي تبقى علاقة الاستغلال تعمل بشكل طبيعى لكن الكاتب يفضحها عبر تفاصيل أخرى :

يحاول صاحب الهنشير أن يترك انطباعا لدى الوالد عن لامبالاته وكبر همته وتطيره وتواضعه ولكن الكاتب ، من خلال السرد ، فضح نيته هذه : ان من يقدم أيام الآحاد ويقدم صباحا ويحمل «الكثير ، الكثير ، الكثير» من الغلال والخضر لا يمكن الا أن يكون حريصا وجشعا !

ونعود الى قطعة السكر ذاتها ولكن هذه المرة من خلال عيني الطفل / الراوى ومن خلال ذلك السؤال المنتصب كشوكة فى الحلق : «ألا يعرف أن القهوة بالسكر أفضل ؟!» لتدرك كم ثقبوا فى موقف صاحب الهنشير ، وكم يبدو غير سوى وجافا روحيا وكم يثير الاشمئزاز ويقضى على حلاوة الاشياء ...

فقطعة السكر أصبحت - على مكانتها الثانوية فى البناء الحكائى - التفصيل الفنى الهام الذى يعطى المعنى الكلى للقصة . أما الاستغلال ، الذى بدا من خلال السرد شيئا عاديا لا يثير ولا يدهش ، أصبح الآن بعد الكشف عن آلية المكر التى تحرکه مقرفا. أشد القرف ...

(2) حول قصة «يوم جميل»

أعتقد أنه لا يلزم شريط لغوى أطول من هذا لتقديم حدث الموت من خلال عيني طفل .

ان حدث الموت بهذه الصفة المجردة التى يبدو عليها للوهلة الاولى فى القصة ، يتألق للحظة ويختفى كأي حدث عابر ولكنه لا يتلاشى اذ النص يفتح فى الوقت المناسب فيستنهض مخيلة القارئ بعد أن قدم لها المعلومات الضرورية لاداء وظيفتها :

اليوم الجميل المشمس الدافئ واللذيد ، الفرح ، الضحك ، اللعب ، القهقهة ، الخدود الجميلة ، النهود كذلك ... مكونات كون مشرق ، مضيء منعم بالامل . عابق بالفرح ، ينث منه التفاؤل ، يفوح فيجنح !!

وأنت لابد هنا أن تحاذر : خطوة خاطئة ، حركة غير محكمة ، همسة بل نامة ويختل التوازن ، تشوش كل هذا التناغم فتطرد من ملكوته صفرا الا من ورقة التوت ...

ويستحل الموت هذا الكون المطمئن ويرتج عليه ... تتبدى الاضواء وتنكسف ويتلاشى الفرح ، ينفذه الموت فيتنحى ويسقط قطرة طل ويشربه الثرى ... ان تقديم حدث الموت بهذه الكيفية قد يمس عند المتلقى منطقة انفعال أكبر ويدفعه للتفكير فى الموت بأكثر حدة أكثر من لو أنه قدمه بشكل آخر ...

سياق القصة هنا رؤية قيامية :

كل مكونات ذلك الكون المشرق تهى للقيامة / الفجیعة . مطلعها أثیری ، هههه ، تحس كأنك تطير فى ثناياه وذوائبها تغرق فى الظلمة والخيبة .

والكاتب ينبش كذلك المشترك من الموروث الثقافى فيك : أبو العتاهية : «بينما الفتى بالصفاء مغتبط حتى رماه الزمان بالكدر» ابن عبد ربه : « اذا كان الموت راصدا فالطمأنينة حمق » .

فاجعة الطفولة والبراءة أمام وحشية الموت ، لا مبالاة الطبيعة نحو الانسان الزائل ، بل لامبالاة الجمال أيضا !!

ولك أن تمضى من تأويل الى تأويل ...

أمام الموت تتفجر الذات فتصل الى حال تعانق فيها كونها المشرق ، كونها الخاص ، وهى تعرف أنها تهرب الى كون زائل لامحالة ولكنها تتشبث به وتمتلىء به ...

وإذا أدركنا أن القصة تتكون فى ذهن الكاتب دفعة واحدة وليس له فيها أن يقتفى أثر الكلمات توصله الى مجاهل أخرى بل يختزلها قاطبة - اذ بإمكانك أنت أن تبدأها من نهايتها ! - عرفنا أنه يدرك مسبقا زوال هذا الكون الجميل الذى هو بصدد بنائه فى زمن القص ، ولكنه ببنائه واعادة بنائه بشكل لا نهائى يؤجل الفاجعة لاجل لا نهائى ... يؤجل التأجيل ..!

(3) حول قصة «الصبية الحمامة»

«تلك الصبية الملتحفة جناحي حمامة» ... «تلك الصبية ذات العينين السوداوين» ... «تلك الصبية البيضاء» ... «تلك الصبية» ...

ان تكرار هذه الكلمات البسيطة ذات الايقاع الموسيقى الهادى تخلق عند المتلقى شعورا بفيض الحياة والجمال وبإمكانية السعادة ..!

هذه الصبية المتهادية كغيمة صيف ... هذه الصبية الشفاقة ، الضبابية الخفيفة تبدو وكالحلم ... بل هى الحلم ..!

ان صبية الشهوة الغائبة فى القصة بل حتى فى أشد النفوس شهوة للجنس ... هذا الجمال المتفايض أعلنه الكاتب ومضى الى ما دونه ...

هذا الفيض من الجمال يحى وينحسر متراجعا نحو العمق كموجة مرتدة اذ ترتج عليه الهموم الأخرى للقصة والتي تنتصب هنالك فى أول منعرج ...

يفرقك الكاتب ويجعلك تتخبط فى غسل الأشياء الكثيف وما ان تتفايض ذاتك حتى يلتقطك بكل عنف كثوب فاذا ذوابك مضمخة بالخيبة والحيرة ... ينتزعك من حلمك وينشرك أمامك ..!

الذات هنا تحن الى احلال التناغم والتناسق فى الاشياء ، تحن الى احلال القيم الجميلة والاصيلة فى العلاقات (الوفاء هنا مثلا) ، الى الحب كمبرر للوجود ... وهذا التناسق غائب فى واقع القص وفى الواقع المعيش . وهذا ما يجعل الذات تعانق فضاء أبيض ناصعا ، هفهفا ، شفافا كالعلم ... تعانق العلم !..

سياق قص دائرى ، مغلق وعنيف :

تبنى الذات كونها مقابل الواقع المعيش ولكنها سريعا ما تنشره أمام هذا الاخير فيعصف به ...

هل يمكن الحديث عن لا جدوى البناء أم عن استحالة العلم أمام ضراوة الواقع ؟!

بل ان هذا الواقع المتردى لا يأتلى يدنس حتى أحدث الملائكة الهابطة توا من السماء ... حتى الراوى - الذى يهفو للقيم الاصيلة الجميلة - جعله مشتركا !..

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

شئ على سبيل الخاتمة :

يقول الناقد «مارك شورر» فى مقال له بعنوان «التكنيك بوصفه كشفا» : «علينا أن نصحح ما قاله الكاتب الفرنسى «بوفون» فنقول ان الاسلوب هو الموضوع بدلا من قوله ان الاسلوب هو الرجل» وذلك عندما لاحظ أن الاسلوب (أو ما سماه بالتكنيك) يكون عادة متوافقا مع مجموعة المواقف التى يعبر عنها وينهار ويصبح غير ملائم بتغير الموضوع أو الموقف ؛ وعلى هذا فهو (أى الاسلوب) تعبير عن حقبة ما أو ثقافة ما وليس حركة ميكانيكية خارجية بل هو عملية أولية وأساسية ، وهو لا يحمل Véhiculer المدلولات الكرية فحسب بل يوضعها ويكتشفها لنا .

وربما وجب علينا القول نحن أيضا ان الاسلوب هو العصر !

ان المناخ الغائم على حياة الناس فى مجتمع صالح الدمس يتميز بالصمت والانغلاق والانطواء وفقدان المبادرة والتواكل وتسليم الامر بيد الآخرين

والمؤسسات لذلك كانت عناصر القص عنده مهيكلة بهذا الشكل وكان هذا النمط من القص بالذات الفقير ، كما أسلفنا ، بالاحداث والتحويلات الكمية والاضاع والمواقف والخالى من التطورات المتعلقة بالشخصيات القصصية .

وهو اذ يصور هذا السكون الذى وصلت اليه الحياة ويعلن احتجاجه ضد هذا الصمت الذى تنغمر فيه شخوصه فانه يجد نفسه متضامنا مع هؤلاء بحلمهم وتوقعهم المعلن وغير المعلن لمستقبل أكثر انسانية لانه يجدهم وحدهم القادرين على منح رغباته السامية كامل قيمتها ... لذلك تأتى تلك النهايات / البدايات ، تلك المفارقات مكنتزة بالقيم الجميلة عبر تساؤلات طفولية صافية معلنة وعنيفة أحيانا ومحتشمة ومتكنمة أحيانا أخرى كما الرغبة ، كما الحلم ..

يوسف السعيدانى

ديسمبر 1989



هوامش :

- (1) تتناول هذه المداخلة قصص صالح الدمس البرقية المنشورة بالصحف ولا تتناول مجموعة الكاتب الاخرى الصادرة عن دار الاخلاء سنة 1986 .
- (2) أنظر جريدة «الايام» ليوم 14 مارس 1985 .
- (3) أنظر الملحق الثقافى لجريدة «الحرية» عدد 16 ليوم 7 جويلية 1988 .
- (4) أنظر جريدة «الايام» ليوم 7 جانفى 1988 .

جراح فى فم السراب ...

« كنت كالمجنون ، أدور وحدي حول
مستنقعات مسمومة » .

- شاعر ألماني ٠٠ -

□ I - وها أنت الآن تجوب الشوارع وحيدا مرة أخرى ، تنظر هنا وهناك
فلا تكلمك الوجوه الآدمية ولا ترثي حالك الطرقات والمطاعم والاروقة المتلاصقة
فى هذه المدينة المختنقة بالتيه والحيرة والسراب والخوف المزروع فى جدران
الابنية وأرصعة الساحات والمحطات ٠٠٠ ساحة برشلونة مكتظة أيضا فى هذا
المساء البارد من شهر جانفي ٠٠ نافورة المياه المتدفقة تضى على المكان
هدوءا حائرا رغم الضجيج المنبعث من هنا وهناك ٠٠ صفير القطار الليلي
الزاحف نحو الجنوب ٠٠ أزيز عربات « الميترو » المبللة برذاذ الشتاء النازف
المكتظة بمئات الارواح والاجساد البشرية كدر صفوك ونسف طمأنينتك
البريئة ... وبالقرب من ذلك المدرج المغطى تفرقت جموع من الافراد والنساء
والباعة ٠٠

وفى داخل محطة القطار الفاخرة تفرق بعض جنود بزيهم الاخضر المعهود
يراقبون الحركة مجيئا وذهابا ٠٠ وبعض نفر من المسافرين مكثوا قبالة الشباك
يطالبون تذاكر السفر ٠٠ وصراخ صبية صغار يمج الاسماع لا يكاد يهدأ
ليملأ المكان والآذان من جديد ٠٠

نظرت يمنية ويسرة ولكنك لم ترها فى المقعد الخشبي الطويل ٠٠ أصاب
رأسك شبه دوار وتملك أعصابك شبه ارتخاء وسرت رعشة غريبة فى أطراف
جسدك النحيف ٠٠٠ لماذا تخلفت يا ترى ؟ هل حصل لها مكروه ؟ أم إن هنالك
شيئا آخر ؟ لا أدري ؟! ٠٠٠

دارت فى خاطرك آراء وآراء وطوفت بذهنك أشياء وأشياء. لكنها كانت كالسراب الخاوى الكاذب الذى لا يجد منه الانسان سوى الوهم ولا يجنى من تبعته سوى المرارة والالام والندامة .. الفتاة التى أسرت كيانك وملكت روحك لم تحضر الى المحطة كعادتكما عشية كل خميس .. وها هو ذا المقعد فارغ فارغ ! إنها لم تأت بعد ...

نظرت الى الساعة الرابضة فوق ظهر يدك اليمنى فاذا هى السابعة مساء .. حاولت أن تنسج لغيابها عذرا من خيالك وتلتمس لذلك مبررا ولو من سراب ..

أوهمت نفسك بأنك أسعد انسان يمشي على الاديم ويحلم بالغد والشهادة والسيارة الفارعة المستوردة .. ذلك لانك تعلم ان هذا العام هو عامك الحتامى الذى تقضيه داخل أسوار الجامعة .. تذكرت مجاملات رفقاءك بالكلية الذين كثيرا ما كانوا يقولون : إنك ستنتقل الى الحلقة الثالثة بسهولة .. ضحكت من نفسك كثيرا ولعنت نفاق زملائك وتلونهم .. تساءلت : أى قيمة للعلم والشهادة فى مثل هذا العصر ؟ .. هذا العصر الذى تلفه الازمات والبطالة والجوع والغموض ؟ ..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

تذكرت مزاح صديقك « عبد الله الصالحى » الذى قال لك بالامس : ستقدم أطروحتك فى العام القادم حول مشكلة التراث والمعاصرة .. فقلت له مازحا : لك أنت أن تحل هذا المشكل الحضارى !!

فلم يتمالك أن أردف : اخذ لا مفر من أن يكون موضوع بحثك « الدولة والقانون الطبيعى عند سبينوزا » .. أو « الاخلاق عند نيتشه » ..

وتذكرت أيضا كيف حاولت « كوثر » أن تجد لك مخرجا من تلك الورطة بأن قالت : لا ! كيف ذلك ؟ « حسن » سيسافر الى فرنسا .. وهناك سيواصل دراسته فى السربون ... السربون ..

وقاطعتها « أحلام » مازحة : « السربون » .. آه .. سبتلنمذ على « بارت » أو « جاك دريدا » ... ؟ ...

شعرت أخيرا بأن أحداث الامس تؤلك كثيرا وتمزق أوصالك الهزيلة ..
تذكرت اتفاقكما على اللقاء فى محطة القطار .. والبسمات التى كانت ترسلها
عند وداعك فى باب الكلية الخارجى .. حتى غاب عنك طيفها الهادى داخل
الحافلة الصفراء الخاصة بالطالبات ...

. تذكرت كيف أنك اصطدمت بجثة صديقك « الطيب » من فرط الذهول فلم
يتمالك من أن قال ضاحكا : مرحبا « جميل » ! لا تنس أن تنظم قصيدة رائعة
فى « بشينة » .. لا تنس !

□ 2 - كان رأسك المدور يغلي كالطوفان الأزرق ، وكانت مئات الأخيلة
والاشباح تشق ذهنك وتطن بدماعك طنينا مفرعا مخيفا ، شعرت بجبينك
يتصبب عرقا .. وأحسست بحمى عابرة تحوم حولك وقشعريرة داخلية تعبر
جلدك النحيف ...

رأيت فتاة جميلة فارعة تقبع فى مكانها الذى اعتادت أن تنتظر فيه
مساء كل خميس ...

توهمت أنها قد قدمت مؤخرا لكنك مصصت ريقك الغائر أسفا لما علمت
أنها ليست هى ... وكان خيالها الاهيف يتوزع فى أروقة المحطة ونوافذها
البلورية التى كانت تبدو لك شيئا مخيفا مفرعا ...

سمعت بائع الصحف المتجول ينادى بأعلى صوته : « آخر أخبار اليوم ..
صحافة المساء .. الصحف طريقك الى العالم ... الخ ... » لكنك لم تعثر
كلماته المعهودة أى اهتمام يذكر ..

□ 3 - كان كل طلبة الكلية يعرفون أن « حسن الشبحاوي » من أنجب
طلبة الفلسفة مع أنه لا يهدأ على وتيرة ما ...

تذكرت كيف لقبك أستاذ الفلسفة الحديثة بنيتشه الصغير ..

شعرت أخيرا بسعادة غريبة تغمرك وتملك عليك قلبك النابض الدافق ..
ولكنك لم تدر مصدرها الحقيقى ..

عندما نزلت من مدارج الطرف الآخر المقابل لمحطة القطار ومشيت قليلا في البهو الارضي الموصل الى المدرج الآخر شعرت بضيق شديد واختناق يابف رقبتك وفمك وأنفك ولكنك تجشمت الامر واندلفت صاعدا المدرج الآخر غير عابئ بالضجيج الذى يحدثه المارة والجلبة المتواصلة التى ترجع الى أصوات المسافرين ...

وها إنك أخيرا تجتاز المدرج الثقيل فتبدو لك ساحة برشلونة كالجزيرة العائمة فى البحر .. تقابلك الساعة الكبيرة المحاطة بأسلاك حديدية ونافورة المياه الدافقة ، وترى فى أثناء ذلك أعدادا من الآدميين جاثمين فوق الحشائش الخضراء ، ونفر آخر مرابطا بقرب الحافلات الصفراء الراحية .. وتبدو لك تلك الاشياء كلها كالاشباح المتراصة ...

□ 4 - عندما أدركت محطة الحافلات كان رأسك يغلي كالمرجل وكانت الجموع البشرية المتراصة تبدو لك كالاشباح المتنقلة بل كانت الابنية الشامخة تبدو لك كالسراب العابر ... وكان كل شئ على غير عادته ...

رأيت رجلا يصرخ ويضج ويذب فأحاط به جمع المارة .. كان يتفوه بكلام غامض حتى أنك حسبته مجنونا .. لكن سرعان ما استل سكيننا من تحت ثيابه وانبرى يصيح ويطارد بعض المارة فعرفت أنه مخمور .. لزمتم مكانك ولم تتحرك خوفا من بطشه المرعب ، ولم تتنفس الصعداء إلا بعد أن أمسك به حافظ الشرطة فعاد الهدوء الى المسافرين ...

وبينما كنت ترقب مجيئ الحافلة كدر صفوك الانتظار ونال منك السأم القاتل وشعرت بعرق بارد يتصبب منك صبا دفقا اذ بيد رقيقة تربت على كتفك بهدوء ... وفى تلك اللحظة ازدادت نبضات فؤادك دقا ، وتملكتك حيرة عجيبة ..

أدركت رأسك الى الوراء ونظرت فى الوجه الباسم خجلا .. وتجاسرت أخيرا وقلت : كيف أنت الآن يا أحلام ...؟

ارتسمت فى عينيك الغائرتين صورة نابضة لهذا القوام الفارع الذى يمكنك أمامك .. وحدثت نفسك بأشياء أخرى وتساءلت : ماذا عساها تريد يا ترى ...؟

لما لاحظت مياسم الارتباك قد ملكت نفسك وبرزت على تجاعيد وجهك المبلل
بادرت بالقول : إخالك قد فوجئت بهذه لانتحية !..

لكنك لم تتردد لحظة في القول : أبدا ! أبدا ! لكم يسعدني ذلك ! إنني
أرى أن المكان قد ازداد بهجة بحضورك .. وفي الوقت الذي تتردد فيه هي
في إخفاء ابتسامتها العريضة التي مسحت وجنتيها الورديتين كان خيال
« كوثر » ينسحب من ذاكرتك شيئا فشيئا تاركا عالمك الظامي للفرح
الساكن في عيني « أحلام » ...

نظرت إليها نظرة هادئة ملؤها الرضى والشوق الصامت ثم قلت مهمما :
أيمكن أن نمضي معا بعض الوقت في ليل هذه المدينة المائجة ؟

أومات اليك برأسها مبتسمة وعلامات الحجل تكاد تضرم النار في خدها
الوردي .. وعندها فقط عرفت أن طوفانا من الشوق والنار يسكن لواعجها
ويكاد ينفجر تجاه فؤادك ويتحد بعروقك وشرابينك الدافئة ..

عرفت أن هناك نارا مقدسة ظاهرة تهز عينيها هزا وتضرم الوجد في
شرابينها تجاهك ... مشيت الى جانبها في هيئة من الوقار والكبرياء وغبتما
أخيرا عن ضجيج المحطة وزحامها المضجر ..

عمار العوني

1989/2/10

البيت الرمادى

وأنا طفل كنت أراه بعيدا ، مرتفعا ، شامخا ، كجبل أشم فوق ربوة عالية ،
أسأل أبى عنه فيقول :

- صه يا ولد !. لا تذكره بخير أو شر .

وحين أعاود السؤال ، أو ألاحقه بسؤال آخر عنه ، يصرخ فى غضب وخوف:

- قلت لك صه وكفى !!

وأنا صبى كنت أتطلع للذهاب اليه ، أثناء ذهابى الى المدرسة أو عودتى منها.
لكن خوفى الذى كمن داخلى يوقفنى كلما أخطوت نحوه بضع خطوات . أعود
أدراجى ، وأحلم بالذهاب اليه حين أكبر ..

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

وكبرت . بلغت مبلغ الحلم ، فكرت أن أقتنص يوما من أيام قصة الحب التى
أعيشها مع فتاة فى مثل سننى ، تملك وجها صبوحا ملك خيالى ، وروحا فى
خفة العصفور أطارت عقلى ، لم أستطع أن أحسب الساعات والدقائق لرؤيتها ،
والثوانى واللحظات على موعد لقائى معها ..

أنهيت دراستى الجامعية والبيت الرمادى يشغل حيزا كبيرا فى رأسى ،
لا بد أن أذهب اليه ، وأكتشف سره ، وأعرف لماذا يخافه أبى ، وكل الرجال
والنساء والاطفال فى قريتى . لا أحد يحكى عنه شيئا . لو كان بيتا تسكنه
العفارىت لحكت جدتى قصته وهى تهدهدنى لكى أنام ، أو أمى وهى تنظف
جسدى باللوف الخشن ، وأنا بين يديها فى الحمام ، أو أحد اخوتى حين ندثف
تحت أغطيتنا حين ننام . لكن لا أحد يتحدث عن البيت الرمادى بخير أو بشر ،
تماما كما قال لى أبى ، كل الآباء قالوا لابنائهم نفس الكلام ، وكل الامهات ،
كانه شىء مقدس ، أو رهيب ، أو له سطوة على العقول ، وسلطان على الافئدة ..

والتحقت بالعمل . خلفت ورائى فى القرية قصة الحب ، اعتبرتها طيش شباب ، دخلت الى المدينة وعالمها المجنون ، تضاءلت أفكارى يوما بعد يوم حول البيت الرمادى ، انغمست فى الحياة أعب من مباحجها ، أشرب من كثوسها ، أرتوى من منابعها ، كدت أنسى الماضى ، وذلك البيت الرمادى ..

لكنى - ذات يوم - قمت من نومى ، بل فزعت ، فقد رأيته فى احلامى ، يبتعد ، يقترب ، يتشكل فى العديد من الاشكال ، آراه أحيانا أشبه بالقلعة الحصينة تحيط به البروج المشيدة ، يقف فوقها الجند بالاسلحة الفتاكة . وآراه أحيانا كمعبد به العديد من الاعمدة التى تطاول الجبال ارتفاعا ، وآراه كعمارة شاهقة يتساقط البشر من نوافذها كفئران مذعورة تطاردها جيوش من القبط البرية ... تمتت بالبسملة . اغتسلت . ارتديت ملابس ، فتحت النافذة واتكأت بمرفقى فوق افريزها أستعيد ما رأيت ، وما سبب لى الخوف والهلع ..

ترأى لى البيت الرمادى كأنه قبة وسط سماء الفجر ، تتساقط فوق جدرانها قطرات الندى ، تتلأل لتسقط ، ينبت غيرها ، يتلأل ويسقط ، استقر عزمى - بعد لحظات - على السفر الى القرية وغزو البيت الرمادى ..

جلست فى القطار كالاطرش فى الزفة ، أرى بعينى رأسى الفوضى التى يحدثها الركاب ، الضجيج والاضطراب ، ذهني شارد يستعيد قصة الحب . تذكرت فتاتى التى تركتها ، أرى أدق تفاصيل وجهها الصبوح : خصلات شعرها خصلة خصلة ، رقة ابتسامتها ، عذوبة صوتها ، أدق أكثر .. وأقف على لون عينيها ، تتقاذف الضربات فى قلبى كأنى على موعد معها ، لكنى أسفت . مصمت شفتى حسرة على تركى لها ، وهروبى منها ، ظننت أننى سأجد فى المدينة جمالا يفوق جمالها ، وحبا أعظم من حبنى لها وحبها لى . كدت أبكى لولا خوفى من تساقط الدموع ، والتفات المحيطين بمقعدى . خشيت استفسار عيونهم ، ودهشة شفاهم . هربت بعينى البائستين الى الاعمدة التى يلقي بها القطار خلفه فى سرعة رهيبة ، الارض تجرى عكس الاتجاه . وقبل أن يصيبني الدوار ، وأسأل نفسى : لماذا السفر ، تذكرت البيت الرمادى ..

ابتسمت رغما عنى وقد تخيلت أنه ربما يكون بيتا للموتى من الاغنياء الذين كانوا يعيشون فى قريتى . ضحكت فى سداجة . أغلقت فمى بعد أن أثارت ضحكى الانتباه ..

مسافات شاسعة طواها القطار فى ساعات ، كتلك المساحات الضائعة من
عمرى ، وقد استعادها ذهنى فى برهات ..

اقترب القطار من القرية ، أهبت نفسى لمغادرته . خطواتى القادمة تبدأ
بذهابى الى بيت الاسرة . أخلع حلتى . أرتدى الجلباب ، أنتعل المداس .
أسحب الحمار قد احتاج معاونته فى الطريق ..

ابتسم أبى ابتسامة السعادة ، وخرجت ضحكاته صافية نقية لا تعوقها
أسنان ولا ضروس . سألنى ، وأنا أطلب الجلباب والمداس وتجهيز الحمار :

– أين تنوى الذهاب ان شاء الله ؟

قلت :

– اكتشف سر البيت الرمادى ..

قال بعد برهة :

– البيت لم يعد رماديا انه اليوم أصفر اللون ..

استفسرت فى دهشة <http://Archivebeta.Sakhril.com>

– أصفر اللون !! من طلاه ؟

قال

– أصحابه ..

– من أصحابه ؟

قال :

– الذين يسكنون فيه ..

وازدادت ضحكاته ، وهو يقول :

– انه اليوم مستشفى للمجانين ، هه .. أتريد الذهاب اليه ؟

قلت ، وأنا ألقى بنفسى أرضا فوق مقعدتى :

– مجانين ! لكن ما حكايته ؟

ضرب أبى كفيه وقال :

– سبحان الله ! كان قصيرا فخما عظيما ، تحول فجأة الى منفى للمخارجين ،
ثم الآن مستشفى للمجانين .. سبحان من له الدوام !.

أحسست أننى أفقد شيئا فى داخلى ، حبات العرق تنبت فى كل موضع من
جسدى ، خشيت لفترة طويلة أن أقوم من موضعى حتى لا يتبدى لاحد مدى ما
وصلت اليه من فقد للارادة ..

جمعة محمد جمعة



النشر التشيكى فى الفترة الاخيرة

تعريب وتلخيص : علي ساسي

ومحجوب العياري

تجد الكتابة النثرية اليوم في بوهيميا (I) جمهورا عريضا ومتنوعا . وليس من النادر أن تنفذ نسخ كتاب ما حال صدوره وعرضه للبيع ، وليس من النادر أيضا أن نكتشف أنه كان من المفروض طبع هذه الرواية أو تلك المجموعة القصصية بأعداد أرفع لتلبية هذه الحاجة الملحة لدى القراء . وتتم إعادة طبع الآثار النثرية التي فرضت حضورها في الساحة الادبية ، وأصبحت مطلوبة من قبل القراء في سلسلة Klic^c (2) بأعداد كبيرة تتراوح بين الثلاثين والاربعين ألف ، لتصل الى حدود التسعين ألف نسخة (مثلا تم سحب 99 ألف نسخة من رواية : « يان أو تشينازاك Y. Otcenašek » التي تحمل عنوان : « حينما كانت تمطر في الجنة » وذلك في طبعتها الصادرة سنة 1985 . وتجدر الملاحظة اليوم أيضا أن أى رواية ناجحة تجد مكانها ضمن هذه السلسلة الشعبية - Klic^c سنة أو سنتين إثر صدورها لأول مرة . هذا ويتجه اهتمام القراء بالخصوص الى الكتابة التاريخية وأدب الحدث . كما

(I) بوهيميا Bohême هي الجزء الغربي من تشيكوسلوفاكيا وعاصمتها « براغ » .

(2) Klic^c سلسلة أدبية شعبية تعني : مكتبة المطالعات الشعبية .

أن أدب الخيال العلمي - التشيكي منه والمترجم - مازال يحافظ على مكانته المتميزة ، بل ان هناك كتابا يكاد يكون اهتمامهم منحصرا في هذا المجال .
وتحتل الرواية الاجتماعية محور الطلب ، كما هو الشأن بالنسبة الى الكتابات التي تستلهم موضوعاتها من حياة الناس اليومية ، وتتناول القضايا الآنية لانسان اليوم ، ومثله العليا وخیالاته وطموحاته وأفراحه وأحزانه .

ان القارئ التشيكي قارئ متشدد اكتسب تكوينه من خلال اطلاعه على الآثار المتميزة للاديبين التشيكي والسلوفاكي لفترة ما بين الحربين وما بعد الحرب ، وهي آثار يعاد طبعها بصفة مستمرة . وان الحس الجماعي لهذا القارئ وتشدد على مستوى الفكرة / المحتوى ، متأثران بعشرات بل وبمئات الترجمات لآثار أدبية أوروبية وعالمية نجد من بينها بكل تأكيد كتباً شعبية ، أي أدبا للتسلية والترفيه ، غير أن المكانة المتميزة تعود دائما الى الآثار العالمية القديمة والى الأدب الحديث الجاد ، وهذه المعطيات ، بالإضافة الى التجربة المعيشة هي التي تحدد كيفية تقبل كل أثر جديد في النثر التشيكي وتحدد طريقة تقييمه .

وقد ظهرت في النثر التشيكي خلال السنتين أو الثلاث الاخيرة تيارات هامة ومختلفة على مستوى المواضيع والانماط والكتاب . وهكذا مثلاً ، فان سنة 1984 ، تميزت بظهور روايات عن الجيل الشاب والجيل المتوسط ، وهي كتابة وصفها « أولدریش رافاج - O. Rafaj - الناقد ورئيس تحرير مجلة Mensuel litteraire بأنها تمثل أدب الصراع الأخلاقي . وقد كانت المناقشات والمجادلات حول الكتابة النثرية عديدة ، ومكنت من كشف أمر واضح وجلي يتمثل في أن الروايات المذكورة تعتبر بمثابة ولادة جديدة للأدب الجميلة المعاصرة التي تحمل نفساً جديداً وحركة أكثر وضوحاً ، حيث يقترب المناخ العام وعملية اختيار الشخصيات من المناخ الاجتماعي الخلاق وتؤثر فيه لكنها تظل متشددة من وجهة النظر الأخلاقية . كل هذا بالرغم من أن هذه المؤلفات وضعها كتاب ينتمون الى أجيال مختلفة . وقد أطلقت « جاروميرا كولاروفا Jaromira kalarova - التي يظل كتابها : (أنا وطفلي) الصادر في منتصف السبعينات أهم آثارها - على روايتها الجديدة عنوان : « أريد هذه الشجرة » وهي رواية تعالج بالخصوص موضوع الحب كما يتصوره ويعيشه قسم من شباب اليوم . ويتعلق الأمر هنا بنداء منبه ومحذر :

« لا تتعجلوا الأشياء . لا تحرموا أنفسكم - عن وعي ودون حذر - من بهجة شعور حقيقي وعميق . لا تحرموا أنفسكم من فرصة رباط عاطفي يظل متينا مدى الحياة ... » . وقد كانت جاروميرا هذه كتبت رواية لا تخلو من ظرف وفكاهة أظهرت فيها تفهما تجاه الشباب ، ومعرفة بهذا الجيل (بما في ذلك طريقة تعبيره) . وقد أثنى القراء والنقاد (باستثناء قلة قليلة منهم) على براعتها في ذلك .

ان الوسط العام والمناخ الذي تنشأ فيه الافكار والمثل العليا للاطر التقنية المثقفة هي التي ألهمت : « جيرى كرينيك J. krênek » كتابة روايته « توما ومارغريت » . وقد وضع كرينيك على الركب مهندسا شابا يعمل في معهد للبحوث يجد مكانه في الحياة والمجتمع ، ويتوصل إلى اكتساب ثقته بنفسه ، واكتساب منظور مهني علمي بعد كثير من البحث والتحسس . يبطل الرواية هذا ، يعرف نقاط ضعفه ، ويعيش لحظات انهيار ، لكنه - وهو يجتازها - يشعر بمسؤولية تجاه نفسه وتجاه الناس القريبين منه والبعيد منه ، وبالتالي يعي مساهمته في بلورة صورة حاضر العلاقات بين الناس مستقبلها سواء كان ذلك في حقل العمل أو في حقل الحياة الخاصة . كذلك ان « يان كوسترون J. kostrhun » أصيل منطقة مورافيا الجنوبية ، شر رواية جديدة تهتم بمشاكل الناس الذين يعرفهم عن قرب بحكم عمله كمهندس اشتغل سنوات في الميدان الفلاحي . وتبرهن روايته هذه : « زواج لقرن » على تمكنه من تقنيات الفن السردي التلقائي والحركي ، وكذلك على حسه المرهف بالفكاهة وعلى سهولة استعماله للسخرية وذلك حتى إزاء نفسه . كما أن قدرته على سبر أغوار الطبع البشري واستيعابه لأفكار جيله وعواطفه تجلي بعمق نفاذ . وحتى الشخصية الرئيسية لروايته ، فانها تعرف بعض لخبائث في مسيرتها وتدخل في صراع ضد البيروقراطية والمهنية لكنها في النهاية تسخر كل قدراتها للمهمة التي حددتها لنفسها منذ البداية ، فرقة بين المصلحة العامة والمصلحة الشخصية الضيقة وواضحة كل معارفها وموهبتها وكل ثقلها في صالح العمل المشترك وفي صالح تنمية الفلاحة الاشتراكية . وأما في روايات « كولاروفا » - ولكن بشكل أكثر وضوحا عند كرينيك وكوسترون - فاننا نجد بطلا شابا يعتلى الركح الأدبي حيث يتجلى مط عيش الجيل المتوسط ونظرته للحياة وللعالم في فترته الراهنة ، ويتجلى ذلك مفهومه للمسؤولية والالتزام الاجتماعيين .

إن تطور الكتابة النثرية لم يفقد شيئا من نسقه الذى ميزه أواخر سنة 1984 . كذلك ، فإن السنة الموالية شهدت صدور مؤلفات جديدة للكتاب المعروفين والمتمرسين ، واسهاما واسعا من قبل الجيل المتوسط بالاضافة الى ظهور كتاب مبتدئين بمجموعة من المؤلفات أكثرها واعد ، وبعضها أقل نجاحا ، ينقصها الاتقان ، وتعوزها الفكرة الواضحة المحددة في بعض الاحيان .

وبعد صمت تواصل ثلاث سنوات - عقب صدور روايته : (السادسة مساء في أستوريا - A six heures du soir à l'Astoria) الحائزة على جائزة الدولة - أصدر « زدينيك بلوهار Z. Pluhâr » كتابا جديدا بعنوان : « الستارة بدون استحسان Le Rideau sans bravos » . وكما يدل على ذلك عنوانها ، فإن أحداث هذه القصة تدور داخل الوسط المسرحى حيث يبحث الكاتب عن حلول للاشكالات المطروحة حول مسألة الخلق الفنى ودورها وتأثيرها الاجتماعى ، وحول مشاكل الحب والمسؤولية الفردية والجماعية وحول الصراعات الشخصية والمهنية . وحتى هنا ، فإن خبرة « بلوهار » الفنية تظهر جلية ، وكذلك معرفته العميقة بالطبيعة الانسانية وبالوسط الذى اختاره لأحداث روايته وكذلك دقة اختياره للألفاظ . وفى قائمة الجوائز الادبية لسنة 1985 ، فإن رواية « بلوهار » هذه ، تحتل إحدى المراتب الأولى ، إننا نجد بصعوبة قاسما مشتركا للكتابة النثرية سنة 1985 ، حتى وإن بدت للوهلة الأولى متنوعة ومختلفة على مستوى النمط والقيمة . ومن بين عشرات العناوين ثمة كتب تقرأ مرة واحدة فقط ، دون أن نشعر برغبة فى الرجوع اليها ، ولكن هناك عناوين أخرى تتميز بقيمتها ، محاورة العصر الحاضر ، نافذة الى عمق الاحداث والاذواق والهجوم والظواهر التى تبدو هامة وبارزة ولكنها ليست أساسية فى الحقيقة .

ويعتبر « بلوهار » و « جبرى ماراك J. Marék » من كتاب جيل الأربعينات . كما يعتبر « جارومير تومتشيك J. Tomécek » أيضا كاتبا محنكا عارفا بالأدب وبكل المحاور التى تتعلق به : علاقة الانسان بالطبيعة والخطر الذى يتهدد الطبيعة . وبما أننا نتعرض الى ذكر كتاب هذا الجيل . فلا بد من التذكير بمشروعين كبيرين لرويات تاريخية أحدهما للإساعرة : الينا فربوفا A. Vrbova والثانى للكاتبة : « هيليناسما هيلوفا H. smalovo »

تبدأ «الينا فربوفا» كتابها بالعودة الى حرب الثلاثين سنة ، وتتابع سرد الأحداث الى حدود القرن التاسع عشر . وتقع هذه الرواية فى ثلاثة أجزاء : (حينما ينقطع الديك عن الصياح) ، (تحت ختم الكاردينال) ، و (البرعمة) أما هيلينا سماهيلوفا ، فانها تتناول عصور الرق ... وهذه الروايات ذات التوجه الواقعى ، تشهد على معرفة عميقة بالتاريخ وبجزئيات الموضوع المتناول من قبل الكاتبين . وهى روايات تصور عظمة الصراع الانسانى من أجل حياة كريمة ، كما تصور الطابع المأساوى بل التراجيدى لهذا الصراع . وهى كتابات تحيلنا على الرواية التاريخية الواقعية ، وتمثل هذا النمط من الكتابة لسنة 1985 .

هذا ، واننا نجد أن «ميلوسلاف رافاج» Miloslav Rafaj وهو كاتب ينتمى لنفس الجيل ، يفضل القصة أو بالاحرى مجموعة الحكايات المتجانسة على مستوى الموضوع والمجموعة بطريقة جيدة . فبعد رواياته الاولى مثل «الثلج المالح» . نرى روايته الجديدة تقدم نفسها على أنها من الكتابات التى تهتم أساسا بالانسان العامل «العادى» مبرزة عظمته دون تضخم ومؤكدة نبلى طبعه . ان الأحداث التى تجرى فى الريف وفى المدينة تؤيد بصفة جلية على أن امتلاك الخصال البشرية المذكورة والمحافظة عليها ليس بالأمر الهين وأن كل هذا يعتبر جزءا من الصراعات والافكار والافعال اليومية .

إن كتاب « رافاج » هذا ، كما هو الشأن بالنسبة الى كتب « كرينيك » و « كوسترون » ، خير شاهد على نمط تعبيرى فى الكتابة التشيكية المعاصرة ، وهذا النمط يقدم اشكالية البطل الايجابى ويعالجها بطريقة فعالة . وهذا البطل هو انسان عادى جدا ، خطأ ، متعرض للفشل ، محب للحقيقة ، طموح ، يضع كل طاقاته فى سبيل عمل عادل وخلاق وحياة شريفة له وللآخرين .

ومن بين الكتاب الآخرين الذين احتلوا بعد مكانتهم فى الأدب التشيكي والذين يكتبون وينشرون بصفة مستمرة ، وتمثل كتبهم اسهاما جادا لسنة 1985 ، لابد أن نذكر بالخصوص أولئك الذين ينتمون للجيل المتوسط والذين بدأوا الكتابة فى السبعينات ، وأحد هؤلاء « جوزيف فرايس - J. Fraiss » الذى نشر روايته الثانية (الشجرة فى نهاية الطريق) سنة 1985 ، وهى رواية تستلهم أحداثها من الوسط المسرحى ، وتؤكد قدرة الانسان ورغبته فى تجديد قواه وطاقاته الابداعية بصفة مستمرة .

وقد حظيت رواية (لاديسلاف بيتشاشاك L. Pechacék) (الحمامات الجميلة تعود) بقبول حسن من قبل النقاد . وكان بيتشاشاك قد نشر عدة آثار استطاعت ان تخلف أثرا طيبا بفضل أسلوبها الساخر (ثم تحويل أغلبها الى السينما التشيكية) . ويعتبر كتابه الأخير ذا أهمية حقيقية وإيحاء غامر ، اذ انه يشير المصير الدرامي لانسان يبحث عن الخروج من عزلته القتالة ، ويخضع لعلاج قصد التخلص من الادمان على الخمر ، ثم يخوض فى النهاية صراعا طويلا من أجل استعادة حاضره وتحديد مستقبله ، حيث يستعيد ذكريات طفولته ولقاءاته بأناس جريئين شجعان . كما تطرح هذه الرواية أسئلة محيرة ترافق طموحات الانسان كما ترافق حزنه ووحدته ووعيه بضعفه الشخصى ، وتبين كيف أن الناس يفترون غالبا أو يمرون دون أن يكونوا قد التقوا بصفة فعلية ، غير أنها لا تنفى امكانية وجود حيز للعاطفة والتفاهم والتضامن بين الكائنات البشرية .

ان مجال أدب الخيال العلمى تدعم سنة 1985 بالعديد من العناوين الجديدة: ونلاحظ هنا أن الكتاب الشبان هم الذين يهتمون بهذا المجال ويبحثون فيه مثال ذلك : (زدينك فولني Z. Volny) فى روايته : (الباب باتجاه الخلود) الصادرة سنة 1985 ، أو (أوندريك نيف - O. Neff.) الذى أصدر كتابا أخيرا بعنوان (البيضة بالقلوب) غير أن النقد ما ينفك يذكر فى هذا المجال بالنشر التشيكي القديم عائدا قبل كل شىء الى ارث « كارل كابيك » الادبى والى الآثار النثرية لـ « جوزيف نازفادبا J. Nézvadba » لسنوات ما بعد الحرب ، ثم الى « لودفيك سوتشاك L. Sowcek » الذى برهن فى هذا المجال على تمكنه من تقنيات الكتابة وعلى شعوره بالمسؤولية بالاضافة الى دقته الفنية . هذا ، ويطالب كتاب أدب الخيال العلمى بأن تكون كتاباتهم ذات أثر فاعل على المستويين الفنى والاجتماعى ، مع التأكيد على عدم تغييب المنطق والعمل على احترام جملة المبادئ التى تم تركيزها فى هذا النمط من الكتابة ، ومن بينها أخذ الاكتشافات العلمية ومنطق الشخصية والقصة نفسها بعين الاعتبار .

وهكذا يتواصل تطور النشر التشيكي بمساهمة العشرات من الاسماء الادبية المشهورة وكذلك بفضل هذا التدفق المستمر لعدد لا يستهان به من الكتاب الجدد وظهور تجارب حياتية جديدة ومعارف أخرى مختلفة . كما أن

هذه الكتابة النثرية الجديدة تحافظ على استمراريته الداخلية بإبرازها للقيم المكتسبة خلال السنوات العشر الأخيرة على مستوى الأفكار والإسهام الجمالي

ان إعادة طبع الكتب التي شددت اهتمام القارئ ، وترسخت في ذاكرته ، والتي تمثل أفضل إنتاج في الفترة الأخيرة ، أصبحت عملية عادية ومستمرة . ويمكننا في هذا المجال ذكر كتاب : (الدوقة والطباخة) لـ لا ديسلاف فوكس وكذلك رواية (آدم وحواء) لكوزاك التي تكشف حقل العلاقات بين الرجل والمرأة اليوم . يضاف الى ذلك كتاب : (السادسة مساءً في أستوريا) للكاتب «بلوهار» الذي كنا تعرضنا الى ذكره آنفا . ونشير في النهاية الى أن الإنتاج الأدبي لكتاب الجيل الصاعد ما انفك باستمرار . وكمثال على ذلك نذكر رواية (الحوار) الصادرة أواخر سنة 1985 للكاتب «فرانتشاك ماندات» F. Mandat الذي نال جائزة «جيرى فولكر» لسنة 1984 وهي جائزة مخصصة للكتاب المبتدئين .

ان الكتابة التشيكية المعاصرة ، تعكس سلسلة غنية من التساؤلات والمشكلات التي تميز بين الأشياء الأساسية والظواهر السطحية الهامشية . فالروايات التي تحتل مكانة هامة في حقل الإبداع الأدبي هي تلك التي تعبر عن وجهات النظر المتعددة أزاء المعيش التاريخي للإنسان اليوم والتي تصور صراعات الأجيال السابقة والطريق التي قطعها المجتمع قبل ان يصبح مجتمعا حرا يمنح الإنسان الظروف والامكانيات التي تخول له تحقيق ذاته وتمكنه من إبراز موهبته وقواه الخلاقة . وهنا أيضا يكمن الطابع المعاصر للمواضيع المستمدة من الحرب العالمية الثانية ومن التجربة في الصراع ضد الفاشية . ان الكتابة النثرية تفتتح على الحياة المعاصرة من خلال آثارها القيمة . وهي تعبر عن التصور الإنساني للعالم وللإنسان والمشاكل الاجتماعية - الأخلاقية ، وتعبر عن الشعور بأن الموهبة الإنسانية ، والعمل والإرادة ، والرغبة في خلق القيم وفي نحت حياة سعيدة آمنة تمثل أنبل ما في الوجود .

علي ساسي ومحجوب العياري

(*) أخذ هذا النص من مجلة :

العدد التاسع ، سنة 1987 ، ص ص 5 - 9 -

مسرد القصة التوثيقية

جريدة الصلوة (أسبوعية) 1985 - 1987

الصادرة عن جريدة الصباح لصاحبها الحبيب شيخ روحه

إعداد : خديجة الجويني

العدد	السنة	تاريخ الصدور	عنوان القصة	اسم الكاتب
9	I	17 / 3 / 1985	ومضى مع الريح	آس السافى
15	I	28 / 4 / 1985	غربة يا أرض العيث الريح	محمد الناجي الغضبانى
16	I	5 / 5 / 1985	القمر المسروق	ديزى الأمير (لبنان)
28	I	28 / 7 / 1985	فدية كبش	محمد المصمودى
30	I	11 / 8 / 1985	غول النظم	الحبيب المروشى
33	I	1 / 9 / 1985	انتصارا لعم مختار	حسن الماشرى الفرشيشى
34	I	8 / 9 / 1985	بائع الأخلاق	الملكى بالعم
35	I	15 / 9 / 1985	موعد الرجيل	خيرة يوسف
36	I	22 / 9 / 1985	المعانة	محسن دليل
43	I	10 / 11 / 1985	أغراض عامة وأمرأة فى الطريق	محمد الناجي الغضبانى
43	I	10 / 11 / 1985	عشرة الماء والملح	محمد المدرى
46	I	1 / 12 / 1985	الغول	كمال الهلالى
47	I	8 / 12 / 1985	الوهم الطيب	حاتم النقايطى
48	I	15 / 12 / 1985	لحظة صدق	دليلة الزيتونى

اسم الكتاب	عنوان القصة	تاريخ الصدور	السنة	العدد
محمد الناجي الغضبانى	قالت احبك	1986 / 1 / 5	2	51
حمودة بو عفيف	مأساة شيخ	1986 / 1 / 12	2	52
عليا رحيم	علامات إستقام	1986 / 2 / 2	2	55
حسن بن عبد الله	دموع الحسرة	1986 / 3 / 16	2	61
حافظ محفوظ	دمعتان على لغز محير	1986 / 3 / 23	2	62
أبو بكر بن جبل	صلاة القط الأسود	1986 / 3 / 23	2	62
عليا رحيم	مساء رمادى	1986 / 4 / 6	2	64
حسن المشرى الفرشيشى	اصهارى أنا	1986 / 4 / 13	2	65
منور النصرى	آخر الضحايا	1986 / 5 / 11	2	69
الطيب الهادى الطرابلسى	السراب	1986 / 6 / 1	2	72
محسن الدليل	الخلق	1986 / 6 / 15	2	74
نور الدين الغريبي	الفرار من الرضاء الى النار	1986 / 6 / 22	2	75
محمد بن عيسى المؤدب	جدار الحقيقة ينهار	1986 / 6 / 29	2	76
سفيان العلانى	الشاخصة	1986 / 7 / 6	2	77
منور النصرى	شكوى الأرض	1986 / 7 / 20	2	79

اسم الكاتب	عنوان المقصلة	تاريخ الصدور	السنة	المعد
كمال الزغباني	حديث المسيرة	1986 / 8 / 7	2	83
محمد بن عيسى المؤدب	القطيعة	1986 / 9 / 7	2	86
منور النصري	هذا الخريف	1986 / 11 / 2	2	94
كوثر الردادى	هكذا ينتصر الحب	1986 / 11 / 9	2	95
حسن بن عبد الله	اليتيم	1986 / 11 / 16	2	96
محمد الجبيب بن الشيخ	كبرياء نبأ	1986 / 11 / 30	2	98
ابراهيم بن سلطان	قوارير	1986 / 11 / 30	2	98
عليا الرحيم	في دوامة الحياة	1986 / 12 / 28	2	102
المختار الجبالي	وحلق القراب	1987 / 1 / 18	3	105
الطيب المرموش	وفي النهاية يتنصر الحب	1987 / 2 / 8	3	108
ربيعة الفرشيشي	القطار العريد	1987 / 5 / 16	3	121
عبد الرزاق العيفاوي	السراب	1987 / 5 / 23	3	122
فريد بن سلطان	التمن يا سيدي .	1987 / 5 / 23	3	122
لطفي الوسلاتي	غربة	1987 / 6 / 7	3	124
حسن المشرى الفرشيشي	تذكرة سفر	1987 / 6 / 14	3	125

عنوان القصة	اسم الكاتب	تاريخ الصدور	السنة	العدد
الذئاب	الحبيب المشانني	1987 / 6 / 28	3	127
في قبضة الزمن	سفيان العلاني	1987 / 7 / 12	3	129
غدا ينتهي القلق	ميزوني بناني	1987 / 7 / 19	3	130
حماري العاشق	محمد بوفارس	1987 / 8 / 9	3	133
بنيت الجسم	المخاض	1987 / 8 / 9	3	133
ربيعة الفرثيشي	السجين رقم 404	1987 / 8 / 15	3	134
سفيان العلاني	ويبقى البحر والصحى	1987 / 9 / 13	3	138
فؤاد سيالة	لا توجد في البيت امرأة	1987 / 9 / 20	3	139
عليا رحيم	وانتشرت الاقسامه	1987 / 9 / 27	3	140
مسعودة بوبكر	دوامة	1987 / 10 / 4	3	141
الهادي الفرحي	العفريت	1987 / 10 / 18	3	143
عبد الرزاق الكاتب	رحلة العذاب	1987 / 11 / 8	3	146
مسعودة بوبكر	موعد المساء	1987 / 11 / 15	3	147
لطفي بن عائشة	الدينار	1987 / 11 / 22	3	148
ابراهيم بن سلطان	الحذاء والوحل	1987 / 11 / 29	3	149
أم أميرة	الظلل	1987 / 12 / 13	3	151

صراخ فى الزحام

حدثنا بعض القادمين من تلك المدينة ذات القباب البيضاء العالية الواقعة على مشارف الصحراء والمهددة بالرمال والشمس دوماً ، تلك المدينة التى ألف أهلها الصحراء فتوطدت علاقتهم بها وطبعتهم بطباعها ، يرحبون بالقادم ويثقون به ويكرمونه وفى ذاكرتهم تنطبع له صورة لا تمحى ، عن ذكائهم وفراستهم يروون نوادر كثيرة ، تلك المدينة المطوقة بالرمال وحين تنفخ الرياح تمحو ما انطبع عليها من آثار وتهب نحوهم زاحفة ، يطول أصيلها فتنتصب الشمس فى الافق جمرة شديدة الانتقاد تفترش الرمل ثم تغوص شيئاً فشيئاً خلف الكثبان البعيدة . قال الذاهبون لزيارتها للتسوق وعابروها الى مدن الاحلام والاوهام :

كلما انتصبت سوقها الاسبوعية وغصت بطحاؤها الوسيعة بالباعة والشارين وبقوافل المثلثين القادمين من جوف الصحراء على ظهور جمالهم ، وتوسط النهار سماءها وتكدست السلع وعلت أكوام التمر واشتد طنين الذباب فوقها محوماً وكثر اللغط وضافت الدروب بالمارة وزكم أريج البهارات الانوف وارتفع نهيق الحمير ورغاء الجمال وهدير السيارات ، ارتقى شيخ ، متهتك الفم والثوب كاشفاً عن صدر عريض غزير الشعر حاد البصر تغطى محياه لحية طويلة بيضاء مهملة ، بقايا جدار خرب مطل على السوق ورفع صوته منادياً :

■ أيها الناس ! أيها الناس !

فتتوقف الحركة وتهدأ الاصوات :

■ أيها الناس ! أتعرفوننى !؟

■ نعم ، نعرفك ونعرف أمك وأباك ، يجيبه البعض .

فيواصل محتداً :

■ أنا فلان ، خربت الفرنسيين ، جابهتهم مع أهلى ، مع سكان المدن والصحراء والجبل ،، أسرونى ، عذبونى ، لكنى كنت أفلت منهم فى كل مرة ،، فرنسا قوية أيها الناس ، لكن نحن أقوى منها لانا أصحاب حق «والمغتصب فى حقيقته ضعيف أمام صاحب الحق» (I) ، أين زوجتى ؟ أين أبنائى ؟

يهمس أحدهم :

■ أسرهم المستعمر ، تركهم لديه رهائن ، ساوموه : استسلم ، أخبرنا عن أصحابك والا ...

يتابع الشيخ :

■ لكنى لم أستسلم ،، فعلوا بهم شر الفعال ثم قتلوهم أمامى ،،،،

تعود الحركة ، تعود الاصوات شيئاً فشيئاً فيتلاشى صوته فى هذا الزحام ، يظل بعض الغرباء الوافدين على المدينة يحدقون فيه ،،، يواصل حديثه يخاطب الجميع وعيناه تتقدان شرراً :

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

■ أنا فعلت كذا وكذا ، أنا ...

تقاطع بعض الاصوات :

■ المستعمر رحل .

■ لعله يطمح الى الزعامة .

■ لعله يظن نفسه فى الجبل يقود فريقاً من الثوار ..

■ يا لحر الصحراء ! يا لحر مناغيها ! يا لهول تلك الجبال والمستعمر يحاصرنا بحديدته ونيرانه ! أين زوجتى وأبنائى ؟ أين رفاقى الثوار ؟

العبارة لأميل حبيبي من «المتشائل» .

■ مضت تلك الايام ، أيام القهر والعذاب ! خاطبه شخص قصير بلا رقة ،
أنيق الهندام لامع الوجه •

يرفع الشيخ حاجبيه ، يقطب جبينه متعجبا مستغربا ••

ترتفع الجلبة ، يعود البيع والشراء :

■ هات تمرا ، هات لبنا •

■ هات مظلة ، صيف هذه السنة سيكون قاسيا •

يجيبه البائع متوددا :

■ كعادة صيف الصحراء سيدي الكريم •

■ هات ملحاً ، هات منجلاً •

ترتفع الاصوات ، ترتفع الضوضاء فتغطي صوت الشيخ رغم صراخ
المتعالي :

<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

■ أيها الناس ! أيها الناس !

ابراهيم بنسلطان
الرديف

سيده المناحات

بعد موت زوجها بزمان ليس بالقصير سجلت سعدية حضورها بالمناحات ولم يمض على زواجهما الحول .

الغريب أن سعدية لم يظهر عليها الجزع ولم تنخرط في البكاء والنواح كبقية النسوة ، بل لازمت الصمت والجحوظ واللامبالاة في كامل تصرفاتها . وانعكس ذلك حتى في ملبسها ، فلم تعد تكثرث به كثيرا ، فقليل آنذاك : ان الصدمة كانت قوية فسلبت منها جزءا كبيرا من وعيها .

لازمت الارملة دار أبيها لا تبرحه أبدا حتى وضعت مولودها . وعبتا حاولوا معها تغيير حالها بالزواج . وقد تقدم طلاب يدها العديد من الرجال من القرية وخارجها وحتى من الذين رفضتهم وهي لا تزال صبية ، لكنها أصرت على الرفض والرفض العنيف أحيانا اذا حاولوا الضغط عليها ، حتى نضبت نضارتها وبيس عودها ويئس منها الطالبون .

حدث ذلك من خمسين سنة تقريبا ، وتناقل أهالي البلدة الخبر من جيل الى جيل بينما صاحبه لا تزال تسعى بينهم ولم تسرد يوما فجيعتها في زوجها لاحد حتى اذا ما ألح عليها نهضت مضطربة وغادرت المكان .

قيل : ان في السنوات الاولى لترملها بدأت تؤم المناحات ، تسكب دموعا كالجمر ، وقد تنتحب مع الناحبات وتندب مع النادبات وتنوح مع النائحات كبقية النسوة . وبمرور السنوات صارت تنفرد وتتميز بطريقة لا تحسنها

غيرها . كلمات سجعية منغمة حزنا ، تسرد فيها مناقب الفقيد ، مما جعل النسوة تصمتن لسماعها ، وتنتظرن سكوتها لاطلاق عويلهن . ولما تقدمت بها السن أكثر صارت تنوكا على عصا غليظة ، وتتصدر حلبة النسوة وتشرع فى القاء سجعها ونغمها الحزين الذى يدمى القلب فتهيج مشاعر الحاضرين وتعالى الولوجة .

بمرور الايام صار لسعدية مرددات أغلبهن من المسنات يكررن وراءها عبارات من جنس قولها ، وكلما أسرعن أسرعن ، وكلما أبطأت أبطأت ، فتارة - تزوم - وطورا - تبوم - وتارة - تئن - وطورا - تزن - وتغير من ترنيماتها بتغيير الالفاظ الحبلى بمآثر الراحل ومكانته بين أهله .

فى البداية كانت تحضر فى مثل هذه المآتم عن طواعية وكان كل الراحين الى عالم الموتى من أقاربها أو معارفها . ولما أظهرت تفردا فى اثاره الاشجان ونبوغا فى تعداد خصال الفقيد فى مشهد درامى تهتز له النفوس ، بات من المفروض والضرورى حضور سعدية فى كل المناسبات .

كانوا يهيئون لها مجلسها وسط المرددات حتى اذا أشرفت على المكان أطلقت ولولة ليقف من حولها من كان جالسا ويتحرك من كان واقفا ، وتهتز الرؤوس المنكسة وتخرس الالسن ، ويصاعد نواح النسوة متلاحقا لا ينقطع حتى تتصدر سعدية الحلبة متكئة على عصاها الغليظة السوداء الفاحمة التى تستعملها عادة فى تحريك حطب وجمر الطابونة ، وتقدم الفصل الاول الذى تؤديه بمفردها مع تمايل يمنة ويسرة بينما العصا تثبت فى الارض ليتمايل أعلاها بحركة ذراع صاحبه التى لا تستقر على وضع معين من التشنيج ، وبين الفينة والاخرى يتعالى نواح النسوة ، وقد عجزن عن الصمت بعد فعلها ذلك . ويسرع أهل الراحل لاحضار برمة ، وطاجين فاحمى السواد من كثرة الاستعمال ويضعونها أمامها ، فتبرك فى مكانها وتمر بيدها على سواد البرمة فتحوله الى وجهها وكامل بدنهما ، وتهدل شعورها وتمزق ثيابها وكل حركة بولولة مختلفة عن سابقتها ، وما ان تستكمل قبحتها كأشبع ما يكون حتى تأخذ «الغناى» وتضرب قعره فتسقطه وتوسع فتحته ، حتى اذا ما استقر بعنقها واستوى على كتفيها زحفت على ركبتيها وهى لا تفتأ تلوى رأسها فى كل الاتجاهات مع عويل ونواح ، بينما المرددات من النسوة يتبعن زحفها مشيا ،

حتى اذا ما وصلت الى كومة من تراب محترق وضع خصيصا لها ، أخذت تحثه على رأسها وثيابها ثم تنتصب واقفة متكئة على عصاها «المحماش» وتسير ببطء نحو مكانها الاول وهى «تبوم» حتى اذا تصدرته رشقت عصاها من جديد فى الارض وأغمضت عينا وفتحت أخرى ، وأطلقت صرخة يدوى لها المكان ، فتفرع كل الحاضرين وكأن الفقيذ قد طلعت روحه تلك اللحظة عندها تقترب منها المرددات فى شكل دائرة شبه مغلقة وتشرع بطلتهن فى سرد مناقب الراحل ومزاياه الحقيقية منها والكاذبة فى صوت رخيم هادى أول الامر ثم يتضخم شينافشيئا فى مد تصاعدى ، وبين الوصلة والاخرى تردد النسوة آخر عبارة فى مريثة سعدية .

وبين الوصلة والاخرى تهدل من شعورها وتقبح وجهها وتمزق ثيابها فى أماكن عديدة مثيرة كالأبط وما أسلفه ، والجيب وما جانبه ، واللقفا وما حوله وتنفرد عن النائحات بتعليق عظم بحزامها الجبلي الذى لا يفارقها أبدا فى المناحات .

وقد «تقعى» على ركبتيها وتنثر شعرها على الغناى الذى يلزم رقبتها ، وتقبح المرددات حولها مادات راحاتهن نحو «الغناى» ماسحات سواده ليستقر على وجوههن ، وهن بين عويل ونجيب وندب وتقبيح لوجوههن حتى يغادر الراحل الدار الى القبر .

ولقد استطاعت سعدية احياء تظاهرات مناحية طيلة خمسين سنة متصلة مشعلة نار اللوعة فى الافئدة مبدعة فى المنكر ، متفenne فى الاثارة .

ورغم تبيان فداحة ما تفعله من أصحاب القلوب النيرة عند اقامة المناحات وما تتخلله من اعتراض لمشيئة الاقدار ورفض لقانونها فما انشنت سعدية وما كانت لتترتاح لمثل هذه النصائح ، بل كانت تحن الى تلك المناحات وترتضيها وكأنما فيها تجدد كيائها ، حيث ترقص للموت وتترنم للفناء لا استسلاما بل اعتراضا ، وتنتابها أحيانا رعشات واهتزازات انتشاء وكأنها بالموت تحيا .

ولعل البلدة وجدت فى سعدية خير مبدع فى منكرها الذى تفننت فيه وابتكرت حتى صار حضورها ضروريا فى كل مناحة يحضرها القاصى والدانى

للفرجة ، فهي نديمة اللوعة والحزن وتلبى النداء دون تردد بعد أن ذهبت في شينتها أشواطاً .

كانت في ذروة ابداعها يوم مناحة شيخ تراب البلدة وقد استكملت قبحها عندما همست لها احداهن ببناء غرق ابنها بأحد الآبار . جحظت عينها وسكن فيها كل متحرك لحظة وفغرت فما فقد بياضه . ولما تفتنت أن صوتها لا يصل مسمعا خالت أول الامر أنها فقدت السمع ، ولما أسرع اليها الحاضرون وأصغت الى أصواتهم تفتنت الى أن صوتها قد حبس بأعماقها ، وهي تفاجأ بالبناء والخرس تفتق ذهنها شبه المشلول الى حقيقة مرة ، فسيدة المناحات وأميرتها تفتقد وحيدها غرقاً فلا تقدر على اخراج صوتها من حلقها ، والنار تحرق أعماقها . همت بتمزيق ذلك الصمت بخرق ثيابها ، وادماء ما تعرى من جسدها وما لم يتعر ، فخانتها عافيتها وأحست بثقل فى الاطراف والمفاصل ، ولم تقدر على الحركة فاسيتوت كاللوح وهوت تسمع وترى . ولا شئ غير ذلك .

الناصر التومى



خبزة بشماط

سقطت الخبزة من يده ، وغاصت في بقايا مستنقع مرّ عليه أكثر من أسبوع .

يومها كان المطر شايباً ... كاد يهلك الحرث والنسل ... سالت أودية ، وتداعت سقوف ، وانسدّت بالوعات ، وخاضت الأحذية والسيقان جداول الشوارع وبحيرات الساحات .

ظلّ يتأمل بقايا الخبزة بعين كاسرة تؤكدها زفرات حرّاء تخرج شررا من فمه التتن .

إنه اليوم الرابع الذي لم ينل فيه « حظه » من الأكل .. هل يدوس بقية الخبزة بنعله الممزق ، ويمضي لا يلوي على شيء ؟! هل ينتشلها ملطخة مشوهة ؟

الجوع كفر ؟! لم يجروا أن يصرخ على كلب أغبر جاء يتشمّم ما ظهر من الخبزة ... التفت يمنة ، يسرة ... لا أحد يراك وأنت تنحني تلتقط خبزتك ، تخلصها من وحل المستنقع ... وهل يضيرك ذلك ؟. الوحيل !! كانت المرحومة تسليكم دائما « اللّي يجي فيها ما يفريها » . وكم جاء فيها من نتن عفن ، وبابس حجر ؟!

أذكر يوم أكلتم نتنا فلم تسمّموا ؟ أذكر ما قاله شيخ الحي حينئذ ؟ قال لكم : الفقر والجوع مصل ناجع ضدّ التسمّم ... حصانة اكتسبتموها فحسدكم عليها أهل الحول والطول ..!

انحنى يلتقط الخبزة ... سار متلصصا وقفاه عيون تفحص من
يراه ، ويتبع خطاه .

انتهى إلى شجرة خرّوب .. أسند جذعه إلى جذعها يزيل ما
بالخبزة من وحل ... قطعة الورق نفسها ملطخة ... بماذا؟! هم
أن يقضم كدّمة قبل أن يقف . وما كاد يفعل حتى امتدّ أمامه ظل
قامة بشرية ... كان شيخا يبدو عليه وقارٌ ومخائل نعمة ... هل
كان يراقبه من بعيد ؟.

— ما بالك يا ولدي ؟

رفعت عينين مخضلتين وما استطعت كلاما .



ربت على كتفك وقال :

— اتبعني يا ولدي ... الخير فيما اختاره الله .

كم سمعتَ هذه العبارة ؟ .. كان خيال أمك يحكي مأساتها عندما
سقطت مغشياً عليها تعصير أمعاءها .. هدّها الجوع فأسلمت روحها
واستراحت لتشقى أنت وسط العشيرة المنخورة . وكانت سلوى العشيرة
النّديب والنّحيب .

عندما لطمتك الرائحة وأنت تواريها التراب تجشّأت ما فيك من
أصفر خائر ... « عام الرّوز » هكذا نعتوها سنة جدباء قاحلة .

وعاد صوت الشيخ ليخرجه من ذهوله :

— ما بك يا ولدي !.. قلت لك : اتبعني ... هياّ تعالّ معي .

وأمسك يسوقه فانقاد في شرودٍ ، ولم يسأل .

— ما اسمك ، يا ولدى ؟

— محمد العيد .

— فألٌ خير إن شاء الله ... إن شاء الله خير !

مرّر محمد العيد كفته على جبينه يزيل وشح العرق . ثم نظر إلى أكياس القمح الصلب مكوّمة على امتداد عشرات الأمتار وراءه ... عشرات وعشرات من الأكياس الحبلى تنتظر وصول الشاحنات تحملها إلى مخازن الحبوب .

وامتد بصره .. وامتد .. ويمتد ..

ابتسم محمد العيد ساخراً ؟. لماذا لم يترك خبزته الملطخة ؟.. لم يرمها في مزبلة ... لم يعطها لكلب جائع ، لمنكود حظّ ، لمن يسدّ بها رمقاً ... لم ينس أنه في ذلك اليوم أكل دسماً ، وأزال وسخاً ، وضاجع دفناً ... لكنه أبى يومها — أن يتخلّى عن خبزته ... لقد جاءته على قلر فهي من حرة ملكه « يتصرف فيها كما يشاء .

وظلّ طولَ ليلته يناجيها باللمس ، بالتخيّل .. قرر أن يشوي خبزته ، أن تصبغ بشماطا ، أن يبقّيها عنده ما استطاع ذلك . واندأح به التخيّل حتى تصوّر أنه يوصي بها أن تدفن معه في لحدّه ، أن يوصي « أبناءه » ليحتفظوا بها ذكرى وتخليداً .

أحس بنشاط غريب وهو يرفع عن وجهه غطاء الفراش ، فقد تسرّب إلى الغرفة شعاع الشمس ، وخوارُ البقر ... هل يحمل خبزته معه لتُشوى على النّار حتى تتحصّن من التعفّن ، وتتصلّب طينة مشوية لا ينخرها دود ، ولا تؤذيها رطوبة ، ولا يهتمّها زمن ؟! لكنه لم يجرؤ على حملها إلى الفرن ذلك الصباح . هل تحرّج أن ييوح بسرّه ؟

وماذا يقولون عنه ؟ .. هي عندهم خبزة وحل . وهي عنده خبزة خلاصه وبركة !

لماذا لم يطلب منه الشيخ محمود أن يتخلّى عنها ؟ .. لقد رآها تلازمه ، متأبطاً لها حتى دخل الغرفة التي ستؤويه إذا طاب له البقاء عاملاً فلاحياً في المزرعة . فهل قدّر الشيخ تلك العلاقة التي أصبحت بينه وبين الخبزة ؟ ما هو سرّه في الحفاظ عليها ؟

لم ينسَ ليلته الأولى مع خبزته ... لقد حاول فيها أن يناجيها مناجاة الشجي الولهان ، أن يحتضنها بحنان ، أن تداعبها أصابعه ، أن يلدسها بين يديه .

لقد حملق فيها عدّة مرات ... رازها بیده . أخيراً لفها في منديل ووضعها حيث يراها متى أراد . واستلقى على فراشه يطلب نوماً بعد يوم قضى فيه نقلة نوعية مفاجئة لا يدري مصيرها كيف يكون .

وفوجيء بعملاق يفتكّ منه خبزته ، فدافع عنها بكلّ قواه . واصبحت الخبزة جزءاً منه ، من يده ، عضواً من أعضائه إمتاً أن تبقى معه أو يذهب هو معها .

تلبّسته قوة لا يدري ما تأها فجالد العملاق ، ودافعه حتى خرّت قوى العملاق ، وتراخت عضلاته فأنحلت قبضته الحديدية عن اليد المتشبّثة بالخبزة .

اندفع محمد العيد يجري مخافة أن يمسكه العملاق ... كان يتعثّر في جريه حتى يكاد العملاق يقبض عليه فيندفع من جديد هارباً من خطر ساحق إذا لم ينبجُ منه .

وما إن تخلّص من الخطر الداهم حتى توقف عن الجرى وتنفس الصعداء . ثم استلقى على الأرض ليستریح . وبدأ له أنه في حاجة إلى

النوم ، إلى نوم عميق . ثم استيقظ مذعورا فنفض عنه الغطاء ، وتوّا إلى خبزه يتحسسها في ظلام الغرفة فوجدها حيث كانت ملفوفة لم تمس . كان يحلم - إذن - فاطمأن بالا ، وارتقى على فراشه وسط الظلام الدامس رغبة في النوم . لكنّ النوم طار عنه حتى الصباح فنفض متناقلا يستقبل عمله الجديد .

تملئ محمد العيد فوق كرسي « الحصادة / الرئاسة » عندما أتاة زميله بكأس الشاي ، فرفع يديه عن المقود وبدأ يترشف جرعات الشاي دون أن يحول نظرة عن أطنان القمح المكدسة وراءه . وانتصبت أمام عينيه آلاف الأفواء تصيح ، وعشرات العشرات من أبناء حيّه يمدّون أيديهم المعروقة التحيلة ، وانكشفت أذرع النساء المتصورات فاستعاذ من هذه المشاهد . وأغمض عينيه ليرى الفراغ والخواء .

وهم أن ينزل ويعود مسرعا إلى غرفته يفتش عن خبزه كأنه خاف أن تنالها تلك الأيدي . لكنّه أحس بقرف شديد ، ودوران ينتابه ثمّ . تصبّب عرقه غزيرا وهوى على عجلة المقود .

اثبت التشريح الشرعي أن محمد العيد مصاب بداء القلب . وأقيمت له « جنازة » سادها صمت زملائه عمّال المزرعة وآهات الشيخ محمود . وبعد مراسم الدفن عاد الشيخ إلى المزرعة كثيبا حزينا . واتجه توّا إلى غرفة محمد العيد ، يجمع ما فيها من أشياء تخص الفقيد يسلمها لأهله إذا جاؤوا يبحثون عنه .

اقشعرّ بدن الشيخ وهو يكتشف في أقصى درج الخزانة « خبزة بشماط » ملفوفة في ورق شفاف !! . لقد مضى أكثر من ستين على تلك اللحظة التي أبصر فيها محمد العيد يلتقط خبزة من وحل مستنقع .. لم يعلمها - إذن - فأبقاها عنده لسر يعلمه أو حاجة هو بها أدري .. وظلّت الخبزة الملفوفة جامدة في كنفه . ثمّ حوّل في حشرجة . وأخذ

يقلب الخبزة اليابسة وإذا في وسطها مكتوب بخط رديء « .. ادفنوها معايا » فازداد اضطراب الشيخ وكاد يسقط أرضا . ثم تمالك . وظل واقفا وقتنا لا يدري مدته . ومثل مَنْ أُنْقِذَ من ورطة جرى إلى فرسه يلزها لزا إلى المقبرة .

تعجب القبار من هذا الفارس يخترق ما بين القبور ، فجرى نحوه يستوضح الأمر . وإذا هو الشيخ محمود فازداد عجب القبار وصاح :

— خير يا عمي محمود !

— هل ختتم القبر ؟

— انتهينا من المِلاط الآن .

— الحمد لله !! ما يزال طريا ... أسرع بفتح القبر على مستوى القدمين !

— ماذا تقول يا عم محمود !!
<http://Archivebeta.Sakhrif.com>

— قلت لك : أسرع !. وهات الرفش والمسحاة .

حتى القبار رأسه وأسرع ينفذ أمر الشيخ محمود : فأتى بالرفش والمسحاة وشرع في الحفر ، وعندما رفع الصَّفَاحَةَ الأولى تقدم الشيخ محمود وأدخل الخبزة إلى القبر . ثم أعيدت الصَّفَاحَةُ إلى مكانها ، وشرع القبار يردم ما حفر بينما كان الشيخ يتلو قرآنا كريما دون أن تكف دموعه عن الانهمار .

محمد العروسي المطوي

ندوة

مفاهيم القص الحديث ومصطلحاته

يقيم نادى القصة (النادى الثقافى أبو القاسم الشاذلى) وجمعية
المعجزة العربية بتونس :

ندوة حول مفاهيم القص الحديث ومصطلحاته وذلك أيام 4 و 5
ماى 1990 بنزل المشتل بتونس حول المحاور التالية :

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

- المفاهيم والمصطلحات من خلال النصوص النقدية .
- نظرية القص .
- نماذج من مفاهيم القص .

الفهرس

العدد الاول جانفى مارس 1990 المجلد الثانى والعشرون

3	تصدير
5	ابراهيم الاسود	سفر الموت والقيامة
11	يوسف عبد العاطى	سالم المقتول
	محمد الخموسى	الاستجواب
22	الحناشى	
	ن. اوسمانوف تعريب	الرواية التونسية فى الثمانينات
28	س. سعيد	
45	مصطفى الكيلانى	مشاهد احتفالية فى شارع رئيسى
48	محمد الامين السعداوى	المطر الاحمر
53	منور النصرى	الباب الآخر
58	يوسف السعيدانى	الالعاب النارية
70	عمار العونى	جراح فى فم السراب
75	جمعه محمد جمعة	البيت الرمادى
	تعريب : ع. ساسى ،	النثر التشيكى فى الفترة الاخيرة
79	م. العيادى	
86	خديجة الجوينى	مسرد القصة التونسية
90	ابراهيم بنسلطان	صراخ فى الزحام
93	الناصر التومى	سيدة المناحات
97	محمد العروسى المطوى	خبزة بشماط